

كتاب



## الطريقة التيجانية وأدوارها السياسية في إفريقيا الغربية خلال القرن 19م

د. عبد الله عيسى  
باحث وأكاديمي (سوريا)

## الطريقة التيجانية وأدوارها السياسية في إفريقيا الغربية خلال القرن 19م

إعداد

د. عبد الله عيسى

باحث وأكاديمي (سوريا)

[iissa34@yahoo.com](mailto:iissa34@yahoo.com)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

فِيضًا لَّهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

سورة البقرة، آية رقم 245

## إهداء

### أهدي ثمرة جهدي وعملي هذا:

إلى أغلى ما خلق الله تعالى على وجه الأرض على قلبي؛ إلى من أدينُ لهما بحياتي وروحي؛ إلى من ذاقا نار الغربة والفراق لأجلي؛ إلى من تقف الحروف عاجزة عن التعبير عن حُبي لهما: أبي وأمي (حفظهما الله وأطال بعمرهما) وإلى زوجتي ورفيقة عمري، وبشارة الأمل، الغالية رحاب، والتي كانت إلى جانبي في السراء والضراء.

ولا أنسى فلذات أكبادي: أبنائي الأعزاء (عيسى، محمد، وبراء) لتحملهم انشغالي عنهم أثناء كتابة هذه الدراسة، فهم شمعة حياتي؛ أسأل الله أن لا يحرمني من وجودهم في حياتي، وأدعوا الله أن يرعاهم ويصونهم برحمته، وأن يوفقهم في حياتهم. إلى أختي: عدنان وعزيزة وعلي ومحمد وعمار حفظهم الله، وأطال في أعمارهم إلى أخي وصديقي العزيز رفيق دربي، الدكتور محمد الحسين، الأستاذ في جامعة حلب، قسم التاريخ

كما أهدي هذا العمل إلى أستاذنا الجليل، الدكتور جميل جمول، رئيس قسم التاريخ في جامعة حلب، الذي كان ولا يزال نعم الأستاذ، ونعم الأخ. إلى جميع أساتذتي الذين تعلمت على أيديهم العلم والمعرفة في جامعة حلب، قسم التاريخ، الذي أدين لهم بالفضل الكبير، وكذلك أساتذتي الأفاضل بجامعة الحسن الثاني، كلية الآداب بنمسيك، بالدار البيضاء، ونخص بالذكر، الدكتور أحمد الشكري، والدكتور خليل السعداني، فلهم مني جميعا خالص الشكر والتقدير.

كما أهدي هذا العمل، إلى صديقي وأستاذي العزيز الأستاذ الدكتور عبد السلام زيدان، أستاذ التاريخ بجامعة البعث، سوريا إلى كل الأخوة العاملين في مركز مقديشو للبحوث والدراسات، لما يبذلوه من جهد علمي قيم، يخدم العلم والعلماء؛ فلهم منا كل الشكر والتقدير، والعرفان.

## ملخص

يندرج عملنا هذا ضمن إطار الاهتمام الذي نوليه لدراسة القارة الإفريقية عموماً، والأجزاء الغربية منها على وجه الخصوص؛ وذلك إيماناً منا بأن تاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء لم يأخذ حقه في الدراسة والبحث والتقصي، خاصة بين الأوساط الأكاديمية العربية. ومن هنا تأتي أهمية هذا العمل، كمساهمة متواضعة في سد وملء هذه الثغرة.

كما تهدف هذه الدراسة والتي عنونها بـ (الطريقة التيجانية وأدوارها السياسية في إفريقيا الغربية خلال القرن 19م)، إلى تسليط الضوء بشكل مفصل، وبطريقة سلسلة ومبسطة على الطريقة التيجانية وأدوارها السياسية والمتمثلة بمقاومة المد الاستعماري الفرنسي، خلال القرن التاسع عشر؛ وهو القرن الذي تنامي التنافس الأوروبي على القارة الإفريقية، وخاصة منطقة إفريقيا الغربية.

وقد بنيت هذه الدراسة من مقدمة، وثلاثة فصول؛ عالجتنا في الفصل الأول التعريف بمؤسس الطريقة التيجانية، وهو سيدي أحمد التيجاني، كما تطرقنا إلى رحلاته الخارجية التي كان لها الدور الأبرز في صقل واستكمال معارفه الدينية، والعلمية. أما الفصل الثاني، والذي عنونه بـ (قيام التيجانية بمنطقة إفريقيا الغربية وانتشارها)، حاولنا خلال هذا الفصل، التعريف بالشيخ عمر الفوتي باعث التيجانية ومؤسسها بإفريقيا الغربية، وما قام به من رحلات داخل المجال السنغالي وخارجه، وبيننا أهمية هذه الرحلات في بلورة فكره الجهادي. كما تطرقنا في هذا الفصل أيضاً، للحديث عن الظروف الداخلية المتردية لمنطقة إفريقيا الغربية، ودور هذه الظروف في تنامي الطريقة التيجانية، وانتشار أفكارها ومبادئها في المنطقة. ثم عرجنا للحديث عن أهم الحركات الإصلاحية التي شهدتها المنطقة، نتيجة تدهور الأوضاع السياسية للمنطقة، وبيننا أن من بين أهم أهداف هذه الحركات الإصلاحية - الجهادية، هو جمع شتات المسلمين بالمنطقة، بهدف إقامة دولة إسلامية قوية، قادرة على تقويم الأوضاع الداخلية المتدهورة، ومستعدة في الوقت ذاته لمواجهة الضغط الأوروبي المتنامي والمستقل.

كما توقفنا في هذا الفصل، لمناقشة قضية التدخل الأوربي بدءاً من الوجود البرتغالي، ومرورا بالأطماع الهولندية والإنجليزية، ثم أخيراً التغلغل الفرنسي الذي استطاع الانفراد - بعد إقامة تفاهمات دولية - بالمنطقة، ونهب خيراتها.

أما الفصل الثالث والأخير، فقد تحدثنا فيه بشيء من التفصيل عن الأدوار السياسية التي لعبتها الطريقة التيجانية خلال القرن 19، والمتمثلة في مقاومة الاستعمار الفرنسي، فحاضت الدولة التيجانية العديد من المعارك ضد القوى الاستعمارية، وكبدتها خسائر فادحة، ولكن انعدام تكافؤ القوى جعل الكفة تميل للفرنسيين، فاستطاعوا القضاء على التيجانية، وفرض سيطرتهم فعلاً على المنطقة.

وفي النهاية، نود لفت الانتباه إلى قضية أساسية وهي، أن الانهيار الذي أصاب الدولة التيجانية، كان سقوطاً عسكرياً وسياسياً، وليس فكرياً وروحياً، مما يدفعنا إلى التأكيد أن التيجانية وتعاليمها ازدادت انتشاراً ونفوذاً بعد وفاة شيخها الحاج عمر الفوتي، واستمرت قائمة الوجود إلى يومنا هذا.

وأنهينا دراستنا هذه بخاتمة، تضمنت النتائج كافة، والتقارير التي توصل إليها البحث، وكذلك الإشكاليات التي لم نستطع من خلال البحث إيجاد حلول لها، آمين من الباحثين الغيورين على المصلحة العلمية، إيجاد حلول لها في ظل تقنيات جديدة لاستكشاف ما هو دفين.

كما اعتمدنا في هذا البحث على عدد لا بأس به من المصادر والمراجع، سواءً العربية منها والتي بلغ عددها (20)، أو الأجنبية (19)، والتي مكنتنا من معالجة أهم القضايا والأحداث التاريخية التي عاشتها المنطقة خلال فترة الدراسة.

## مقدمة

يُشكل التصوف متمثلاً بالطريقة التيجانية طبعة الإسلام الأكثر رواجاً وانتشاراً في منطقة إفريقيا الغربية، وقد امتدت في الزمان طويلاً مرافقةً لتاريخ الإسلام ونضاله؛ من أجل تقليص مساحات الوثنية التي كانت اللباس الديني لنسبة كبيرة من سكان المنطقة، وامتدت في المجتمع عمقاً لتوجه القيم والأفكار والعادات، وتعيد ترتيب المراكز والمواقع، وبناء المجتمعات، واستقرار نظمها واستقرار حاضرتها. والحق، أن التيجانية خلال القرن 19م كانت النهر الإسلامي الأكثر تدفقاً - بين الأفكار والنحل الإسلامية - إلى بلاد إفريقيا الغربية، فاستقر في أرجائها، وبين رياض التصوف، وحضرات الأسيخ، والمريدين، ونشأت قصة الإسلام في هذا الجزء من بلاد المسلمين.

فأصبحت الطريقة التيجانية تحتل أهمية بالغة في الحياة الروحية للفرد في إفريقيا الغربية، وحولها امتدت شجرة الإسلام في السنغال، وضمن حوزاته وحضراته. وكذلك ساهمت الأدوار السياسية في علو شأنها، كالدور الذي لعبه الحاج عمر الفوتي تال، في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في منطقة إفريقيا الغربية، ومقاومة الاستعمار الفرنسي؛ فارتبط اسم التيجانية في هذه الفترة بالمقاومة الوطنية، فلا يمكن لأي باحث أو دارس لتاريخ المنطقة، أن يتجاهل الدور الكبير الذي لعبته الطرق الصوفية، وخاصة التيجانية في تأطير المقاومة الإسلامية للاستعمار الفرنسي في إفريقيا الغربية.

فإشكالية هذه الدراسة إذا، تنطلق من الإجابة على السؤال التالي: كيف تجلّى دور الطريقة التيجانية سياسياً في منطقة إفريقيا الغربية خلال القرن 19م؟ وهو القرن الذي شهد تنامي المد الاستعماري الفرنسي في المنطقة.

وللإجابة على هذه الإشكالية المحورية، ويجب علينا معرفة نشأة الزاوية التيجانية وانتشارها بمنطقة الدراسة، وتتبع وفهم خلفيات التنافس الاستعماري الأوروبي

على المنطقة، الذي سيفرز لنا انتصار فرنسا، وانفرادها بحُكم جزء كبير من منطقة إفريقيا الغربية، وخصوصاً السنغال.

وفيما يتعلق بدواعي اختيارنا لهذا الموضوع، يمكننا تلخيصها في الاعتبارات

التالية:

1. إنَّ الاشتغال بتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء يندرج ضمن اهتماماتنا بتاريخ هذه القارة، ويأتي من اقناعنا العميق بأهمية الدراسة، في المساهمة في إثراء وإخصاب المكتبة العربية، التي ما تزال تعاني من ندرة الإنتاج العربي الأكاديمي حول التيجانية وأدوارها السياسية في منطقة إفريقيا الغربية.
2. تجاوز النقص الحاصل في الدراسات الحالية التي تقف عند منوغرافيات؛ تتضمن وجهات نظر اختلفت قيمتها العلمية، وتعددت أبعادها وتوجهاتها، بإعطاء نظرة دقيقة متكاملة على شكل بنية هرمية منسجمة مترابطة، يصبح فيها الجزء الأداة المحورية والفاعلة لبناء الكل.
3. تحامل بعض الدراسات الأجنبية على تاريخ إفريقيا الغربية، ومحاولة قلب الحقائق، حيث جاءت بعض استنتاجاتها مجانية للواقع التاريخي، وخاصةً فيما يتعلق بدور الإسلام في مقاومة المد الاستعماري.
4. إظهار تجليات العلاقة بين الممالك السنغامية والقوى الأوروبية.
5. الرغبة في سد فجوة من فجوات تاريخ إفريقيا الغربية الحديث، ولملمة حلقاته المفقودة.

بناء على ما تقدم، نسعى في هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على تاريخ التيجانية، ومعرفة أهم الأدوار التي أدتها في مقاومة القوى الاستعمارية، وخاصة الوجود الفرنسي، بغرض إثراء وإخصاب الدرس العربي المتعلق بإفريقيا جنوب الصحراء والعمل على إغناء المكتبة العربية في هذا الشأن.

## الفصل الأول

### التعريف بمؤسس الطريقة التيجانية

قد يبدو للقارئ لأول وهلة أن تخصيص فصل بأكمله للتعريف بشخصية من الشخصيات التاريخية اللامعة، في أحد مجالات العلوم الإنسانية، أو غيرها، يعد شيئاً مبالغاً فيه، إلا أنه من الأمور البديهية والمسلم بها؛ أن مواهب الإنسان ومداركه واستعداداته الذهنية تتفاوت وتختلف من شخص لآخر، وبنسب متفاوتة جداً أحياناً. ويترتب عن هذا الواقع، أن الموهوبين والعباقرة من صفوة الرجال، يشكلون قلة متميزة في مجتمعاتهم؛ بفضل المنجزات الفكرية والإبداعية التي يقدمونها، ويسجلها لهم التاريخ بمداد من ذهب، إجلالاً للخدمات العظيمة، وللفوائد الجمة التي قدموها لأجيالهم، وورثها عنهم أسلافهم، والتي شكلت - بطبيعة الحال - لبنات أساسية في صرح البناء الحضاري الإنساني.

ولهذه الأسباب، ارتأينا في بداية هذا العمل الوقوف عند شخصية أحمد بن محمد التيجاني، باعتباره مؤسس الزاوية التيجانية بمدينة فاس في المغرب.

#### – من هو سيدي أحمد التيجاني المؤسس الروحي للتيجانية؟

ولد سيدي أحمد بن محمد التيجاني سنة 1737م بعين ماضي،<sup>1</sup> مقر أسلافه المتأخرين باعتبار أن جده الرابع سيدي محمد بن سالم انتقل من قبيلة عبدة، أحواز مدينة أسفي مع أسرته بالمغرب الأقصى، إلى بني توجين وتزوج منهم، وصار أولاده وأحفاده يُعرفون بالتيجانيين. وبذلك يتضح، أن الشيخ سيدي أحمد التيجاني أنتسب لأخواله في هذا اللقب، ولا علاقة له بنسبه العرقي الحقيقي، كما تذهب إلى ذلك معظم المؤلفات التيجانية، التي ترفع نسبه إلى محمد النفس الزكية ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب.<sup>2</sup>

إن البيئة التي نشأ وترعرع فيها سيدي أحمد التيجاني بعين ماضي، وتأثره بقيمتها، ونهل من معين علمائها ورجالاتها، تعد بيئة مفعمة بالعلم والورع، باعتبارها

<sup>1</sup> تقع هذه البلدة في قدم جبال أمور على بعد 70 كم، غرب الأغوار بالمغرب الأوسط. راجع:

-Gouilly (A), 1952, l'islam dans l'Afrique Occidentale Française, Paris, p. 110.

<sup>2</sup> أحمد سكيرج، 1988، كشف الحجاب عن تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب، بيروت: المكتبة الشعبية، ص. 10.

مركز المعرفة والولاية والصلاح منذ تأسيسها، في حقبة تاريخية غير معروفة بشكل مضبوط. وهكذا، فحينما يتحرك سيدي أحمد التيجاني الطفل ثم الشاب، داخل هذه البلدة، كان يجد نفسه بين أهل العلم والمعرفة، وفي رعاية الفقهاء والصلحاء. إن كان في بيئته وبين أحضان أسرته، وجد نفسه جنباً إلى جنب مع متبعي السُنَّة النبوية من المتيمين بالعشق الإلهي، والنور المحمدي، وإن خرج إلى المسجد أو الزاوية صار في رحاب أساتذة وعلماء، مجتهدين لتلقين تلاميذهم ما يُفيد، ويقرب إلى الله من العلوم الإسلامية.<sup>3</sup> وإذا كانت بلدة عين ماضي على هذه الأهمية الكبيرة من العلم، فإن معظم أفراد شيخنا، الذين يشكلون إحدى مكونات هذه البلدة العلمية، كانوا على مستوى رفيع من علمي الظاهر والباطن، فأبوه محمد ابن المختار كان شيخ زاوية، ويذكر عنه علي حرازم برادة أنه ((الشيخ الإمام، كهف الإسلام، وملاذ الأنام، العالم الشهير والورع الكبير..، محجة العلماء العاملين، ومحجة السالكين المسترشدين.. وكان له بيت في داره لا يدخله أحد إلا لذكر الله)).<sup>4</sup>

كما أن أمه عائشة بنت الولي الجليل سيدي محمد السنوسي التيجاني الماضوي، كانت سيدة فاضلة، ذات أخلاق كريمة، لها من الصلاح مكانة عُلية ومرتبة سنوية. في هذه البيئة نشأ أيضاً أخوه محمد المكنى بابن عمر، حافظاً للقرآن الكريم، مشاركاً في علوم الشريعة، متقناً لعلوم الفرائض والحساب.<sup>5</sup>

من خلال ما سبق، يمكن القول وبكل اطمئنان، أنه عندما يتعمق الباحث في دراسة عمود نسب سيدي أحمد التيجاني، وتراجم أسلافه، يتأكد من علو شأن أسرته في العلم والمعرفة، فأجداده كانوا في معظمهم من خيرة العلماء والصلحاء في المنطقة. وفي ظل هذه الرعاية النموذجية، وفي أحضان هذه الأسرة المحبة للعلم والإصلاح، نشأ أحمد التيجاني، كريم الأخلاق، مقبلاً على الجد والاجتهاد؛ متمسكاً بالدين وسنة المهتدين، معظماً عند الخاصة والعامة. وبسبب هذه الظروف المطبوعة بالعناية المتميزة، وفي ظلها حفظ القرآن الكريم على ظهر قلب، وهو ابن سبع سنوات

<sup>3</sup> إدريس العراقي، البواقيت العرفانية في التعريف بالشيخ أحمد التيجاني وبطريقته وزاويته الأم التيجانية، مرقون ضمن أعمال ندوة الطريقة التيجانية التي انعقدت بفاس من 23 إلى 29 دجنبر، 1985، ص. 25.

<sup>4</sup> علي حرازم برادة، 1988، جوهر المعاني وبلوغ الأمان في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، وبهامشه كتاب رماح حزب الرحيم، لعمر بن سعيد الفتوي الكدوي، بيروت: دار الجيل، ج. 1، ص. 24.

<sup>5</sup> علي حرازم، المصدر السابق، ج. 1، ص. 26.

من عمره، برواية الإمام ورش تلميذ الإمام نافع، وكان أستاذه في هذه المادة الفقهية العلامة المقرئ، سيدي محمد بن حمو التيجاني المازوي.<sup>6</sup>

وبعد حفظ القرآن الكريم، عمل شيخنا بطلب العلوم الأصولية والفروعية والأدبية؛ حتى تعمق فيها وأدرك أسرار معانيها، يستوي عنده في اهتمامه المنقول والمعقول، وعلى يد شيخه المذكور، قرأ مختصر الشيخ خليل، والرسالة، ومقدمة ابن رشد والأخضري، كما تتلمذ في نفس العلوم وخصوصاً المختصر، على يد شيخه سيدي المبروك بوغافية التيجاني. واستمر في طلب العلم والمعرفة ببلاده حتى بلغ سن الرشد؛ فصار يرشد ويدل على الله، وينصر عباده، وينصر سنة رسوله (ص)، ويحيي أمور الدين، وقلوب المؤمنين؛ فصار يضرب به المثل في إحياء السنة وإتباع المحجة البيضاء، وحق له أم يُسمى بمحيي الدين، ومجدد ما اندرس واطمحل من إيمان المسلمين.<sup>7</sup>

ولعل هذه المؤهلات هي التي جعلت سكان بلدة عين ماضي يوافقون بالإجماع على خلافة والده في رئاسة الزاوية، رغم صغر سنه الذي كان يبلغ آنذاك ستة عشر سنة، وهي المهمة التي مارس خلالها خمس سنوات في تدريس القرآن الكريم، وسنة نبيه محمد (ص)، وعلوم إسلامية أخرى.

حقيقةً، لم يكتفِ سيدي أحمد التيجاني بالرصيد المعرفي الفقهي والصوفي، الذي حصل عليه في المغرب الأوسط بمسقط رأسه، على ما يبدو، فطموح الفتى الورع لا حدود له، والتعاليم الدينية تحت المسلم على طلب العلم من المهد إلى اللحد، وأرض الله واسعة، وربما أن صاحبنا كان شغوفاً بالقراءة والمطالعة؛ فهو بدون شك كان يدرك تمام الإدراك أهمية المرحلة في استكمال المعرفة، وتوسيع آفاق الفكر، وصقل الموهبة وتعلم الصبر على الشدائد، وهي صفات سهلة المنال بالنسبة لمن يعشق قيام الليل من الركوع والسجود من طراز هذا الرجل.<sup>8</sup>

<sup>6</sup> أحمد الأزمي، 2000، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج.1، ص. 53.

<sup>7</sup> علي حراز، المصدر السابق، ص. 24.

<sup>8</sup> Amar Samb, «la vie d'El Hadj Omar, par Cheikh Moussa Kamara», bulletin I.F.A.N., T32, n°23 année 1970 Dakar, Sénégal, p. 75.

## – رحلاته ودورها في صقل واستكمال معارفه الدينية والعلمية:

أول رحلة قام بها سيدي أحمد التيجاني خارج منطقة عين ماضي، كانت صوب مدينة فاس سنة 1758م، ولعل وقوع اختياره على هذه المدينة، لتكون أول مكان يضع على أرضها رجليه، وهي بحقيقة الأمر لم تكن مجرد صدفة؛ بل كان صادراً عن اقناع وُبعد نظر خصوصاً وأن أعمال العقلاء منزهة عن العبث. فالمدينة الإدريسية حركت مشاعره لعدة أسباب، في مقدمتها أهميتها العلمية، وقداستها ورمزيتها التاريخية، وقوة شحنتها الروحية، وعداء أهلها للأتراك الذين يكرههم بدوره، علاوة على أنها جزء من المغرب الأقصى، بلده الأصلي باعتبار أن أجداده نزحوا إلى المغرب الأوسط من ناحية مراكش. وهذا ما يفسر تعدد زيارته لفاس إلى أن استقر فيها بصفة نهائية، ورغم أن كل هذه الأسباب تبقى واردة، إلا أن الدوافع العلمية والروحية تتصدرها كلها.

غادر سيدي أحمد التيجاني عين ماضي في اتجاه فاس وهو في بداية عقده الثالث، حسب تقدير البعض. وخلال المدة التي قضاها بها، كان يحضر مجالس أهل العلم، ليستمتع لبعض ما يدور فيها من شروح وتفسير في علوم القرآن والحديث، ثم ارتحل إلى جبل العلم لأخذ القراءة بالتجويد، والقراءات السبع المتواترة على بعض المتيقنين لذلك بمدينة فاس، طبقاً لما أفاد به كل من علي حرازم، ومحمد العربي بن السايح.<sup>9</sup>

وفي هذا الصدد، تفيد إحدى الدراسات المغربية أن شيخنا كان يدخل في سجلات فقهية ولاهوتية، مع كبار علماء مدينة فاس، وأنهم حصل منهم على اجازات خولت له إمكانية تدريس مختلف مواد العلوم الإسلامية.<sup>10</sup>

إن الباحث من خلال رصده لتحركات سيدي أحمد التيجاني في رحلته الأولى هذه، يلاحظ أن اهتمامه كان منصباً على الجانب الروحي أكثر من أي شيء آخر. وقبل الانتقال إلى مواصلة الكلام عن ما تبقى من هذه الرحلة الطويلة، نود التوقف لإبراز بعض الملاحظات، حول ما تقدم وما سيأتي من معلومات تربط بحياة الشيخ، الذي نحن بصدد التعريف به، وهي كالاتي:

<sup>9</sup> علي حرازم، ص. 38. محمد العربي بن السايح، 1973، بغية المستفيد لشرح منية المرید، بيروت: دار الفكر، ص. 138.  
<sup>10</sup> Awad (M), Un Fondateur de Confrérie religieuse Maghrébine : Sidi Ahmed –Al-Tijani, Revue Maroc Europe , N° 2, 1992, p.258.

لا تسمح لنا المصادر المتوفرة، وهي بأقلام التيجانيين في غالبيتها العظمى بمعرفة المدة التي قضاها بفاس، هي رحلته الأولى إليها، قبل العودة إلى الأقاليم التابعة لمسقط رأسه. يترتب عما سبق، أنه في ظل غياب مصادر ووثائق بديلة، تبقى كثير من الأسئلة والإشكاليات دون إجابة، أهمها الغياب التام لأيّة معلومات حول دراسة سيدي أحمد التيجاني بجامعة القرويين، أو تدريسه بها، وطبيعة مناهج الدراسة والمواد التي يدرسها، أو يدرسها، وأهم الأساتذة الذين أخذ عنهم، ولا شيء أيضاً عن أماكن إقامته وسكنه.

يبدو من خلال قراءة بعض المصنفات التيجانية، أنّ أصحابها وجهوا عناية خاصة لشيخهم في رحلته الثانية والثالثة إلى فاس؛ أي عندما أصبح هذا الرجل متكامل الشخصية، ملماً بعلمي الظاهر والباطن، حاصلاً على قدر كبير من الولاية، قادراً على كسب عطف واحترام الجميع.<sup>11</sup>

انطلاقاً من هذا المستوى من التوثيق، لا يمكن أن تتوفر المعلومات عن شيخنا إلا بالشكل الذي تكلم عنه أصحابه، وذلك بتغليب الجانب الروحي والصوفي على أي جانب آخر، باعتبار أنّ الأخبار عن اتصالاته بأهل الصلاح والولاية تشكل ما يزيد عن تسعين في المائة من مجملها، مقارنة مع ما ورد في نفس المصادر من أخبار تتعلق بحضوره في جامعة القرويين، ولقاءاته مع علمائها.

وقد يكون وراء هذا الشيخ عوامل متعددة أبرزها، مكانة الرجل الاجتماعية المتواضعة في كل شيء، باستثناء العلم والعشق الإلهي؛ فهو لم يكن من أصحاب المال الميسورين، ولا من القادة العسكريين البلارزين، ولا من جهاذة السياسة المحنكين، لذلك كان أقرب الناس إليه من المريدين، والأصحاب، هم الذين عرفوا قيمته الحقيقية، وتتبعوا مسار حياته العلمية والوجدانية، في الحل والترحال؛ فعكسوها في مؤلفاتهم بالشكل الذي مكنهم من إبراز مسار شيخهم الصوفي، أكثر من أي شيء آخر.

وإذا عدنا إلى تتبع محطات رحلات سيدي أحمد التيجاني خارج منطقة عين ماضي، بعد زيارته لفاس ونواحيها، وبعد أن أتى البيوت من أبوابها، نلاحظ أنه، امتثالاً لأمر الشيخ سيدي محمد بن الحسن الوانجلي، الذي أشار إلى شيخنا ونصحه بالرجوع

<sup>11</sup> الأزمي، المرجع السابق، ج.1، ص.60.

إلى بلده، وأن فتحه لا يكون إلا هناك. شدّ الرحال إلى الصحراء قاصداً بلد البيضان (موريتانيا)؛ حيث زاوية الشيخ الكبير سيدي عبد القادر ابن محمد، المعروف بسيدي الشيخ القطب الصديقي الشهير، فاخترها منزلاً وقراراً، وانقطع فيها للعبادة والتدريس، والإفادة لمدة خمس سنوات، زار خلالها منطقة عين ماضي، مسقط رأسه. وهو بقضائه هذه المدة الطويلة بالصحراء القريبة من بلدته، كان يُدرك تمام الإدراك أنه يسير في الاتجاه الصحيح؛ طريق السلوك والترقي في المقامات، والمعارج الموصلة إلى الحضرة الربانية.<sup>12</sup>

وبعد زيارة أولياء الله الأحياء منهم والأموات بفاس ونواحيها، وبعد اعتكافه بزاوية الشيخ لمدة خمس سنوات، رحل إلى تلمسان سنة 1772م. علاوة على ميوله الصوفي منذ طفولته، يكون سيدي أحمد التيجاني، وهو في هذه المرحلة من الأربعينيات من عمره، قد أصبح بين قاب قوسين أو أدنى، من قطف ثمار مجاهدته ومثابرتة الرامية إلى تسلّم أعلى مقامات التصوف، والإطلاع على أسرارها، ولحرق ما تبقى من المراحل، وردم الهوة الفاصلة بينه وبين هدفه الأسمى، كان عليه تحمل المشاق، ومكابدة الصعاب وتذليلها، وتحمل ألم الغربة، وفراق الأحباب مرة أخرى للاستزادة من معرفة مشايخ الطرق، وعلمائها، في مغرب البلاد الإسلامية ومشرقها، مروراً ببلدان المغرب العربي ومصر إلى الديار المقدسة، لزيارة الكعبة الشريفة، وقبر الرسول محمد (ص)، إيماناً منه بأن زيارة الصالحين والأولياء، وقبر الرسول؛ تحيي القلوب وتملأها بحب الله ورسوله، وتغفر الذنوب من جهة، ومن جهة أخرى كان سيدي أحمد يشعر في قرار نفسه، أن غرضه سوف لن يقضي إلا بتنفيذ هذا البرنامج، الحافل والشاق في آن واحد؛ لكن أهمية الجزاء المرتقب كانت تهون عليه كل الصعاب والعقبات، فكل ذلك لا يمكن تحقيقه إلا بإرادة وعزيمة قوية، التي كان يتميز بها.

#### – إدراك الولاية بأبي سمغون بفضل العناية المحمدية:

كيف ما كانت الأسباب التي جعلت سيدي أحمد التيجاني يترك مدينة تلمسان، في اتجاه الجنوب؛ فإن الشيء الأكيد هو أنه حل بقصر أبي سمغون في سنة 1871م. وبه حصل له الفتح الأكبر، والولاية العظمى التي صبر وصابر من أجل الوصول إليها،

<sup>12</sup> محمد العربي بن السايح، المصدر السابق، ص. 161.

ويلاحظ أنه قبل حصول هذا الفتح، تغيب عن قرية أبي سمغون مرتين، ولفترتين قصيرتين على ما يبدو، قصد انجاز ما تبقى من المساعي الضرورية لنيل المراد؛ فتوجه في المرة الأولى إلى توات لزيارة العارف بالله سيدي محمد بن الفضيل، وهو من أصل تكورارين في توات المغربية، فأخذ كل واحد منهما عن الآخر بعض أسرار الطريق، كما لقي في مدينة توات بعض الرجال، واشترى منه شيئاً من الأسرار، بثلاثة عشر محبوباً من الذهب الخالص.<sup>13</sup>

أما في المرة الثانية، فقد توجه شيخنا إلى مدينة تازة المغربية، وبه التقى بصاحبه وتلميذه العارف بالله، سيدي محمد بن العربي الدمراوي التازي، الذي كان يقوم بدور الوساطة في الأجوبة التي كان ينقلها له من رسول الله (ص)، باعتبار أن الشيخ التيجاني كان يسأل النبي (ص) بواسطة تلميذه هذا، في أول مرة، لأنه عندما كان يجتمع به لم يكن يقوى أو يتجرأ على مساءلته بشكل مباشر، تأدباً مع الحضرة الشريفة.

إذاً، في غمرة هذه الأجواء العطرة، والتردد على الأعتاب الشريفة، حصل لسيدي أحمد التيجاني الفتح بأبي سمغون منذ السنة الأولى التي قام بها بعد رحيله من تلمسان، فأذن له الرسول (ص) يقظةً لا مناماً، في تلقين الخلق على العموم والإطلاق، وعين له الورود الذي يلقنه، ويلاحظ أن تعيين هذا الورود من قبل الرسول أتى على مرحلتين:

1. في سنة 1196 هـ كلفه بالاستغفار مائة مرة، والصلاة على سيدنا محمد (ص) مائة مرة، وأذن له تبعاً لذلك، بتلقينه لكل من رغب فيه من المسلمين والمسلمات، بعد تحديد الشروط والالتزامات المراد بها.
2. وفي رأس المائة، وهو عام 1200 هـ، زاده في الورد اللازم مائة من الكلمة المشرفة، لا إله إلا الله.<sup>14</sup>

وعملاً بهذا الأمر المحمدي، ترك سيدي أحمد التيجاني جميع الطرق والمسالك، ولم يعد يطلب أي شيء من الأولياء والصالحين، وهذا وإن دل على شيء، فإنما يدل على أهمية مرتبة الشيخ التيجاني عند الله ورسوله، كما أخبره بذلك سيد الوجود، لأن

<sup>13</sup> علي حرازم، المصدر السابق، ج.1، ص. 43.  
<sup>14</sup> أحمد الأزمي، المرجع السابق، ص. 72.

فتحه ووصوله كان على يديه صلى الله عليه وسلم، ومن كان فتحه ووصوله على يديه كان أرفع قدراً، وأعظم شأنًا. ومنذ وقوع هذا الفتح، والفيض بدأ يتكاثر على شيخنا، وورود الأنوار، والأسرار والترقيات في أبي سمغون، أو في عين ماضي؛ التي أصبحت أول مركز للطريقة التيجانية، بعد أن حلَّ بها مباشرة عقب تمكنه من إدراك الولاية والمشیخة، ومباشرة التربية الروحية بإذن من الرسول (ص).

وما أن اشتهر أمره، وذاع خبره بين الناس، حتى شرعت تتوافد عليه أعداد كبيرة من الخلق؛ بغية الأخذ عنه والانتماء إليه، والاستزادة مما كان يمدهم به في الحس والمعنى من الإمدادات الغير مألوفة. ويضيف صاحب البغية هذه الكثرة من الناس بقوله: ((بفترى الناس من شدة الازدحام على اعتابه، وكثرة الوفود منهم على بابيه، كأنهم يطوفون بالكعبة المشرفة، أو يضحون بالتلبية ليوم عرفة)).<sup>15</sup>

بعد أن ركز سيدي أحمد التيجاني أسس الزاوية الأم بمنطقة عين ماضي، بقي على هذه الحالة ينشر الطريقة ويأذن في الأوراد، متنقلاً بينها وبين أبي سمغون وتوات المغربية. وإذا ما صدقنا ما ورد في بعض الكتابات حول الموضوع، فإنه في هذه المرحلة زار الشيخ التيجاني تونس والصحراء والسودان الغربي؛ يؤسس الزوايا أحياناً، ويعين المقدمين أخرى في الأقاليم التي يمر بها، من أجل ضمان انتشار واسع لطريقته، بتلك الأصقاع، دون الإفصاح عن مصادرهم في هذه الإفادات؛ في حين لا تذكر الأدبيات التيجانية شيئاً عن مثل هذه الرحلات خارج عين ماضي، وأبي سمغون بعد سنة 1781م، إلى حين هجرته إلى مدينة فاس.

ولكن يبقى السؤال المطروح هنا: من يستحق قيادة التيجانية في العالم الإسلامي، زاوية فاس أم زاوية عين ماضي؟

يمكننا القول، أن جهود سيدي أحمد التيجاني في نشر الطريقة التيجانية لم تبدأ بشكل فعلي ومنظم، ورسمي، إلا بعد رحيله بشكل نهائي إلى مدينة فاس، ولو كان شيخنا قد تنقل شخصياً إلى الصحراء، أو السودان الغربي، أو إلى ما وراء حدود الجزائر الشرقية، أو أرسل الرسل للتعريف بدعوته، لنص على ذلك صاحب منظومة منية المرید الطويلة، التي تطرق من خلال أبياتها إلى حياة سيدي أحمد التيجاني، من البداية إلى

<sup>15</sup> بن السايح، مصدر سابق، ص. 179.

النهاية، مروراً بإدراكه المشيخة، والولاية. ولم يشر - بطبيعة الحال - لا من قريب ولا من بعيد إلى ما أوردته بعض الدراسات وخاصةً الفرنسية منها، من نشاط تيجاني شرق المغرب الأوسط، أو جنوبه قبل قيام الزاوية التيجانية بمدينة فاس. وهذه المنظومة هي التي شرحها محمد العربي بن السايح، في كتابه (بغية المستفيد لشرح منية المرید). وأياً كان الأمر، فإنه عندما زار علي حرازم برادة شيخه بأبي سمغون سنة 1789م، وجده لا زال يواصل تلقين الأوراد، وتربية الأفواج من العباد،<sup>16</sup> ولعل هذا الإقبال الذي عرفته الطريقة التيجانية، والانتشار الكبير الذي بدأت تحققه من عين ماضي، والواحات المجاورة لها، هو الذي جعل من التيجانية قوة حقيقية، وسيكون لها تأثير كبير على الساحتين، السياسية والاقتصادية.

## الفصل الثاني

### قيام الطريقة التيجانية بمنطقة إفريقيا الغربية وانتشارها

ظهرت الطريقة التيجانية في بداية أمرها في فاس المغربية، وانتشرت تعاليمها في كافة أرجاء المغرب؛ من المحيط الأطلسي غرباً إلى عين ماضي وتوات وتلمسان شرقاً، ومن البحر المتوسط شمالاً إلى بلاد شنقيط جنوباً. ثم ما لبث أن تعدى إشعاع هذه

<sup>16</sup> علي حرازم برادة، مصدر سابق، ص. 44.

الطريقة نهر السنغال، ليعم كل بلاد إفريقيا الغربية، ومن هناك امتد تأثيرها إلى باقي إفريقيا المسلمة جنوباً، وإلى شرق القارة، ثم إلى القارة الآسيوية.

فكيف تمّ هذا الانتشار في منطقة إفريقيا الغربية، موضوع دراستنا، وعلى يد من تم؟ وما هي الظروف التي ساعدت على القيام بهذه المهمة، ابتداءً من عشرينيات القرن 19؟

**أولاً - التعريف بمؤسس التيجانية بإفريقيا الغربية (الحاج عمر الفوتي تال):**

ولد الحاج عمر الفوتي سنة 1797م، في قرية حلوار (Halawar) الواقعة على الضفة الغربية من نهر السنغال، ومن أعمال مدينة بدور الواقعة في إقليم سانت لويس. ونشأ في بيئة دينية علمية مرموقة في بلد عرف الحكم الشرعي للدين الإسلامي، بما يزيد على قرن من الزمن؛ باعتبار أنّ الجمهورية الإسلامية في فوتا تور قد قامت في نهاية القرن 16م، وكان رؤساء هذه الجمهورية التي أقامها نقيب أبناء فوتا، بزعامة الشيخ سليمان بال.

تزود الحاج عمر بعلم الدين، وبالتربية الإسلامية الصحيحة في هذه المنطقة؛ فحفظ القرآن ولم يكن قد جاوز سن البلوغ بعد، وأطلع على شروحه ومعانيه تحت إشراف أخيه ألفا أحمدو (Ahmadu Alfa)، ودرس اللغة العربية وعلوم القرآن بعناية، ودرس الصحيحين.<sup>17</sup> وترعرع شيخنا في ظل الشهامة والإباء، والشرف والتقوى، الأمور التي عززت عزمه وطموحه إلى ما هو أفضل؛ لأن بلاده بلاد الإسلام قد استهدفت باكتساح رجل الغرب، الذي شرع في محاولة تلويح الصليب، مصطحباً بقوة السلاح والمال، والعلم الحديث. وكان مما يخاف منه أن تصل هذه الأمور كلها إلى أراضي إفريقيا البكر، التي لم تترسخ فيها عقيدة الإسلام بعد، فهب للاستزادة من العلم والقوة، ليجد للمسلمين عامة، وللأفارقة خاصة كماً وكيفاً من الدعائم التي بها يقفون أمام الغزو الصليبي، الذي جاء من الغرب.

وسعيّاً وراء المزيد من المعرفة وأخذ العلم من أفواه الرجال، ترك بلده وهو في سن الخامسة عشر لينتقل أولاً بين فوتاتور، قبل أن يشد الرحال إلى جنوب بلاد شنقيط التي كانت له بها إقامة طويلة، أخذ خلالها على الكثير عن علمائها، وتعرف على الكثير

<sup>17</sup> عبد الله عيسى، 2017، الاستعمار الفرنسي للسنغال، المرجع السابق، القاهرة: المكتب العربي للمعارف، ص. 111.

من شيوخ التيجانية في تشيت. ثم سافر لقضاء مدة أطول في فوتاجالون، حيث مارس مهنة التدريس فيها.<sup>18</sup>

ومن الأعلام التي يعتز الحاج عمر بالأخذ عنهم، والتلمذ على أيديهم، والتأثر بهم خلال هذه الفترة، علاوة على أبيه وزوج أخته، لامين ساخو، ومولود فال، وعبد الكريم الناقل اللذان مهدا له الطريق للولوج إلى عالم التصوف، وخصوصاً الطريقة التيجانية، وكذلك العالم المصري جلال الدين السيوطي (ت. 1505م)، من خلال نسخه لمخطوط له.<sup>19</sup>

ومما لا شك فيه أن الفترة التي قضاها بعيداً عن وطنه وسعت أفق مداركه، كما أن التدريس شحذ عزيمته على بناء شخصيته، ووعيه بأهمية العلم ظاهره وباطنه. وهكذا يمكن القول إنه قبل رحيله إلى المشرق العربي، كان قد دخل مرحلة الشباب، وهو حافظ لكتاب الله العزيز متمكن من تعاليم الدين الإسلامي، ومن قواعد اللغة العربية، وعلى إطلاع كامل بأهم المذاهب الإسلامية، خصوصاً المذهب المالكي.<sup>20</sup>

ويحدثنا الحاج عمر الفوتي في كتابه ((الرماح)) أنه كان معجباً كثيراً بقواعد الطريقة الصوفية وخاصة التيجانية؛ حيث اعتنقها وأخذ أورادها عن شيخه وأستاذه عبد الكريم الناقل.<sup>21</sup>

ومع ذلك، يمكننا القول: أن مولود فال قد قام بعدة أسفار إلى منطقة ما وراء نهر السنغال، بغرض نشر الطريقة التيجانية لأول مرة ببلاد التكرور (فوتاتور)، وربما انتقل حتى بلاد فوتاجالون لنفس الغرض، مما يعني أن إشعاع الطريقة كان قد وصل إلى جزء من إفريقيا الغربية، قبل المجهود الذي سيبذله الحاج عمر الفوتي، لنشر تعاليم الطريقة التيجانية على نطاق أوسع في إفريقيا جنوب الصحراء.

**ثانياً - رحلات الحاج عمر الفوتي إلى الأقطار الإسلامية ونتائجها:**

### **1. رحلاته التعليمية داخل بلده:**

<sup>18</sup> Marty (P), 1961, L'islam en Mauritanie et au Sénégal, Paris, p. 246.

<sup>19</sup> الأزمي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 335.

<sup>20</sup> Madina (L. T), 1991, Un islam militant en Afrique de l'Ouest au XIXe siècle : la Tijaniyya de Saïku Umar Futiyu contre les pouvoirs traditionnels et la puissance colonial, P 79-80

<sup>21</sup> - الحاج عمر بن سعيد الفوتي، 1988، رماح حزب الرحيم على نحو حزب الرحيم، على هامش جوهر المعاني، لعلي برادة، بيروت، ص. 230.

بعد أن حفظ القرآن الكريم في قريته حلوار، وذلك على يد الشيخ انجران حمات ، وهو في سن التاسع من عمره، التحق بمحضر أخيه الأكبر ألفا أحمد لدراسة التجويد في العلوم القرآنية. وبعد اتقانه لهذا الفن من التجويد، انتقل إلى قرية اندروبس، عند الشيخ أحمد حلينة لمواصلة تعليمه هناك. وبعض الروايات تقول، بأنه سافر بعد سنوبال إلى مدينة بر؛ التي كانت أهم المراكز التعليمية آنذاك، لكن هذه الروايات غير مؤكدة من قبل أسرته. على كل حال، فالحاج عمر لم يكتف بهؤلاء الشيوخ والعلماء، بل دفعه طموحه العالي إلى التوجه إلى الشيخ عبد الكريم الناقل، وهو من علماء فوتاجالون، التقى معه في قرية دوي (Douyé)، وكان هذا الشيخ عائداً من بلاد شنقيط عند سيدي مولود فال الشنقيطي.

## 2. رحلاته خارج بلده السنغال:

قام الحاج عمر برحلة دينية ثقافية طويلة بدأها عام 1825م، كانت غايتها الأساسية زيارة بلاد المشرق، وحج بيت الله الحرام، بالإضافة إلى أسباب أخرى جعلته يقدم على هذه الرحلة.<sup>22</sup>

سلك الحاج عمر طريق الصحراء الكبرى، وبذلك اجتازها حتى وصل إلى فزان، جنوب ليبيا بالتحديد عند مدينة تاجوراء. وكانت للمدينة مكانة عظيمة في الإسلام والعلم، حيث أقام الحاج عمر في هذه المدينة، وألف هناك منظومته الشعرية في إصلاح ذات البين وسماها ((بتذكرة الغافلين في قبح اختلاف المؤمنين))، وبعد ليبيا توجه الحاج عمر صوب مصر، ونزل ضيفاً على الأزهر، حيث قضى في أورقته ومحاضره العلمية مدة من الزمن. ومن مصر توجه إلى الأراضي المقدسة، وكان ذلك في عام 1828م، ومن وقتها بدأ الحاج عمر بمرحلة الوعظ والاعتبار فيقول في مقدمة منظومته الشعرية: ((اعلم أنني ما قصدت بهذه القصيدة إظهار منسبي في علم العروض والنحو والصرف والمعاني، بل قصدي بها نفع المؤمنين الذين لهم اعتناء بإصلاح نفوسهم لا غيره)).<sup>23</sup>

<sup>22</sup> - من أهمها: حب العلم والمعرفة واستكمال الخبرة في مختلف أصناف العلوم الإسلامية، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، إضافة إلى تردي الأوضاع الاجتماعية والسياسية في السنغال.

<sup>23</sup> - الحاج عمر بن سعيد الفوتي، تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين، 1978، منشور ضمن الأدب السنغالي العربي، لعامر صمب، الجزائر، الشركة العامة للنشر والتوزيع، ص. 60.

وبعد أن تم حجه ومناسكه قدم إلى المدينة المنورة لزيارته صلى الله عليه وسلم، فكمل له المرام والتقى بشيخ يدعى محمد الغالي بعد صلاة العصر، وذلك في مقام إبراهيم عليه السلام، حيث مكث معه ثلاث سنوات وسلمه محمد الغالي كتابه ((جوهر المعاني)) قصد الإطلاع عليه، حيث يقول الحاج عمر في ذلك: ((وجاورت معه تلك السنة في المدينة المنورة على سكانها أفضل الصلاة والسلام، وسلمت له نفسي وحالي وألقيت إليه القياد وبقيت أخدمه قدر ثلاث سنين ووجدت الأخذ عنه ولقنتي الأذكار اللازمة ونظمني في سلك أهل الطريقة و اكتسبت منه الأنوار على وجه الشريعة والحقيقة)).<sup>24</sup>

والجدير بالذكر هنا، أن الحاج عمر تمكن خلال السنوات التي قضاها في الديار المقدسة إلى جانب شيخه الغالي من إتمام تكوينه الروحي والعقائدي، فقد زاد في صقل معلوماته؛ من جراء مجالسته لكبار العلماء والمشايخ في علوم الإسلام هناك.

بعد أن استعرضنا مسيرة الحاج عمر الفوتي أثناء رحلاته التي طالت قرابة عقدين من الزمن، نود الوقوف عند قضية كان لها دور في تكوين شخصية الحاج عمر الجهادية، وأثرت أيضا على إستراتيجيته في فترة الجهاد ضد الممالك الوثنية والاستعمار الفرنسي، وهي كيف تمثلت الفائدة التي أكتسبها خلال رحلاته هذه؟

### 3. فوائد الرحلة:

لا شك أن الحاج عمر الفوتي قد استفاد من رحلاته تلك، سواء الداخلية منها أم الخارجية؛ لأن الاسفار تكون الرجال، كما يقول المثل قديماً. فذهابه إلى مصر والحجاز وأسفاره العديدة في الديار الإسلامية، وتعرفه على أحوال المسلمين ومشكلاتهم الاجتماعية. فهذه كلها مجتمعة كان لابد أن يستفيد منها، وأن تترك أثراً كبيراً في حياته، وفي تاريخ منطقة إفريقيا الغربية ككل، سواء من الناحية العلمية، أو الناحية الروحية، والعسكرية.

**1. الجانب العلمي:** إن زهاب الحاج عمر إلى مصر، وتباحثه مع العلماء واتصاله بأورقة الأزهر، ومحاضره العلمية، ووروده على مصر مرتين، كان له فائدة علمية كبيرة، وخاصة تلك العلوم التي لم تكن تدرس آنذاك في إفريقيا الغربية، كالرياضيات، والفلك. وكما استفاد الحاج عمر في فترة إقامته بموريتانيا؛ حيث

<sup>24</sup> - الحاج عمر الفوتي، رماح حزب الرحيم ، ج. 1، ص. 192 - 193.

التقى بالعديد من العلماء، فنهل منهم الكثير من المعارف، ووسع مداركه. إذًا كانت فترة رحلات الحاج عمر فترة مهمة في حياته الثقافية، حيث ألف العديد من الكتب، ومنها الرماح.

2. **الناحية الروحية:** فذهابه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والتقائه مع شيخه محمد الغالي المغربي، فملازمته له لمدة ثلاثة سنوات تعتبر نقطة تحول كبيرة في تفكيره الروحي، وكان الشيخ محمد الغالي يثق به ثقة كبيرة، ومنه جدد طريقته التيجانية؛ وقلده أيضاً لقب الخليفة في الطريقة التيجانية من البحر الأحمر شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً. وعندما غادر الحجاز متوجهاً إلى وطنه، أمره الشيخ محمد الغالي بدعوة الناس إلى الله، وأوصاه بعدم مخالطة السلاطين الجائرين. وكل التوصيات التي قدمها إليه شيخه الروحي، تدور جميعها أو أكثرها حول الطريقة التيجانية، ولا شك، أن الحاج عمر قد استفاد منها استفادة عظيمة من الناحية الروحية.

3. **الجانب العسكري:** نرى أن تعايشه مع الثورات في الشرق، كالحركة الوهابية، المناهضة للاستعمار، والمحاربة للبدع. وأيضا ظهور العديد من الحركات الإصلاحية في كل من الحجاز والعراق، وإعلان مبدأ الثورة على الحكومات لباغية، وانتشار دعواتها في البلاد التي خضعت للاستعمار الأوروبي. كل هذه الأشياء كان لها تأثيرات الغة على شخصيته الجهادية، وأثر على إستراتيجيته أثناء فترة صراعه مع الفرنسيين. إضافة إلى مكوثه لمدة سبع سنوات في نيجيريا، وعقده صلات الصداقة والتصاهر مع أسرة عثمان الفودي، التي كانت أسرة مجاهدة، ومشاركته في الحكم هنالك سياسيا وعسكريا، هي أيضا استفاد منها استفادة كبيرة، من الناحية العسكرية، وأثر ذلك واضح كل الوضوح في قيادته الحكيمة لجيشه، وانتصاراته العديدة.

تلك هي الفوائد التي حصل عليها الحاج عمر من رحلاته عبر الأقطار الإسلامية. وفيما يلي نورد شهادة فرنسيين على أعماله الجليلة، وتأثير طريقته التيجانية من الناحية السياسية على مستقبل الجهاد في منطقة إفريقيا الغربية. وهذه الافادات

بطبيعة الحال، على الرغم من أنهما أتيا من عدوه، قبل صديقه فهذا له دلالات ذات بعد كبير.

يقول عنه أحد الضباط الفرنسيين: ((..لقد كان الحاج عمر أكبر ممهد لمن أتوا من بعده من الزعماء الإفريقيين، الذين قاوموا على غرار الاستعمار الفرنسي؛ لأنه كان يمثل الطموح والحماس الصوفيين، وقد استطاع بنفوذه، وقوة شخصيته أن يقوي رابطة الوحدة الإفريقية بين أتباعه المنتسبين إلى القبائل المختلفة)).<sup>25</sup>

ويقول عنه أيضاً مولارد الفرنسي: ((..لولا الاستعمار الفرنسي لنجح الحاج عمر في إقامة دولة واحدة إسلامية في إفريقيا الغربية)).

---

<sup>25</sup> Ca Da Mosto (A .De.). 1895, Relation des voyages à la cote occidentale d'Afrique., Paris, publié par M. Charles Schefer, p. 317.

## (المبحث الأول)

### الظروف الممهدة لقيام الطريقة التيجانية بمنطقة إفريقيا الغربية

ساهمت عوامل عديدة داخلية منها وخارجية، في تهيئة الظروف المناسبة لقيام الطريقة التيجانية، وتجذرها في منطقة إفريقيا الغربية. ونحن بدورنا، سنقوم في هذا الفصل، بعرض أهم هذه العوامل، عسى أن تساعدنا في معرفة الأدوار السياسية التي أدتها الطريقة التيجانية في مقاومة الاستعمار الفرنسي، بالشكل الذي نريده.

#### أولاً - الأوضاع الداخلية المتردية:

نرى من المفيد أولاً تقديم نظرة عامة عن خريطة أهم البلدان المعنية المعنية في هذا المحور، والتي كان لها دور فعال في الأحداث بصفة مباشرة، مع الأخذ بعين الاعتبار الدور التاريخي الفعال والمؤثر، الذي لعبته فرنسا في صنع الأحداث انطلاقاً من مصب نهر السنغال، بسانت لويس؛ في إطار مشروعها الكبير بغرب إفريقيا، ولذلك فإن الحديث عن فرنسا كطرف قوي وفعال، في تقرير مصير المنطقة المعنية بالدراسة، يفرض نفسه بشكل كبير ومُلح.

إن الممالك التي نود التعريف بها، توجد بصفة عامة في حوض نهر السنغال، أو بعيدة عنه قليلاً، مثل كارطا شمالاً، و فوتاجالون وطامبا جنوباً، وتأتي أهميتها بالنسبة لموضوعنا، من كونها تشكل الإطار الجغرافي الكبير الذي ولد وترعرع فيه الحاج عمر الفوتي، مؤسس الطريقة التيجانية بمنطقة إفريقيا الغربية، ولأن إقليم فوتاتور الذي ينتسب إليه شيخنا يقع ضمن هذا المجال، ناهيك مما تعج به أراضي هذه البلدان من خيرات معدنية، وثروات فلاحية وبشرية، وقدم أهلها في اعتناقهم للإسلام. لذلك، لا نبالغ إذا قلنا أن نجاح مساعي الحاج عمر الفوتي الدعوية والجهادية الأولى، يرجع الفضل الكبير فيها إلى الإمكانيات المتعددة التي تتوفر عليها البلدان نفسها. ومما لا شك فيه أيضاً، أن الاستراتيجية التي أدت بالشيخ التيجاني إلى هذا النجاح الأولي، لنشر الطريقة

التيجانية بمنطقة الدراسة، بناها صاحبها على تصور مُحكم، ومدروس لما للحاج عمر من خبرة بالميدان. فما هي إذاً أهم هذه الدول التي نود التعريف بها؟

### – مملكة كاجاكا (Kajaga):

تسمى أيضاً كلام (Galam)، ويرى الباحث "بوبر بارى" أنها وريثة مملكة غانة التي استمرت حتى القرن الثالث عشر الميلادي.<sup>26</sup> وتقع هذه المملكة على الضفة الجنوبية لنهر السنغال عند التقائه بنهر الفاليمي **Falemé**، كما تقع عند تقاطع الطرق البرية الآتية من السودان النيجيري شرقاً، ومن فوتا جالون وبلدان الماندينك الغامبية جنوباً، وبلدان الساحل شمالاً، وهي بذلك تحتل مركز الحركة التجارية النابض، مما جعل من السوننكي المسلمين الذين يشكلون معظم سكانها، الأكثر ذكاءً، والأكثر مهارةً في الشؤون التجارية، بشهادة الرحالة موليان (Mollien).<sup>27</sup> ومما زاد من أهمية هذا الموقع أن الذهب المستخرج من نهر الفاليمي، والمعادن المتخرجة من تلال بوندو (Bundu) البلد المجاور، كل ذلك كان يمر عبر كاجاكا.

وقد أفاد موليان أيضاً، أن بلاد كلام كانت أحسن بلدان إفريقيا خصوبة؛ بدليل ازدهار عدة محاصيل زراعية بها مثل: الدخن، الأرز، التبغ، القطن، فضلاً عن أن الحليب والأسماك مادتان تشكلان غذاء السكان الرئيسي.<sup>28</sup>

ونظراً لثرائها الطبيعي، وموقعها المتميز تعرضت البلاد لعدة تهديدات، كما تشهد على ذلك محاولات جيرانها الأقوياء، وهكذا فإن جزئها الشمالي المسمى كوي (Goy)، كثيراً ما حاولت فوتا الواقعة إلى الشمال منه ضمه، في حين نجد جزئها الواقع إلى الجنوب الشرقي، المعروف بكاميرا (Kamera)، أو كاجاكا العليا، كان غالباً ما يلجأ إلى التحالف مع الدولة العسكرية الوثنية البمبارية، أو طلب الحماية منها، لتجنب الوقوع في قبضة الأعداء.

ونظراً لأهميتها الاقتصادية والإستراتيجية، فضلاً عن السلع التي كانت تأتيها من السودان النيجيري مثل الذهب والعبيد والعاج، وبفضل المقومات الاقتصادية صار

<sup>26</sup> Barry(B), La Sénégambie du XVe au XIXe siècle: traite négrière, islam et conquête coloniale, Paris : L'Harmattan, 1988 , p 41.

<sup>27</sup> Mollien (G), 1820, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique aux Sources du Sénégal et de la Gambia, fait en 1918, p. 166.

<sup>28</sup> Ibidem, p. 167.

المجتمع الكاجاكي مجتمعاً طبقياً خلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر. وعشية وصول الحاج عمر إلى المنطقة، انقلب رخاء هذه البلاد إلى نقمة عليها، ووصلت إلى أقصى درجات الضعف من جراء اندلاع حروب أهلية في كل جهة من البلاد، كما ساهمت فرنسا من جهتها بانتهاج سياسة فرق تسد.<sup>29</sup>

### – بلاد البوندو (Bundu):

توجد هذه المملكة على الضفة اليسرى لنهر الفاليمي، ارتبط تكوين هذه المملكة أساساً بالحدث الذي عاشته منطقة فوتاتور في القرن 17، والذي تجلى بحركة ناصر الدين الإصلاحية، وما ترتب على فشلها من اضطهاد لرجال الدين. وتتجلى أهمية بوندو من الناحية الاقتصادية في قدرتها الفلاحية الكبيرة التي جعلت منها مخزناً للحبوب بالسنگال الأعلى، بحيث أن الدخن على سبيل المثال يكثر على اختلاف أنواعه. ومما يفسر هذا الازدهار في الميدان الفلاحي؛ أن جحافل كثيرة من البشر و مواشيهم كانت تقصد هذه البلاد من البلاد المجاورة في سنوات الجفاف، وفترات العوز والحاجة.

ولكن مع مطلع القرن 19، تعرضت لأزمة سياسية خطيرة، هددت البلاد من جراء صراعات حادة على الحكم، فزاد من حدته التدخل الفرنسي في البلاد التي شكل موقعها طيلة القرنين 18 و 19 آخر محطة للطرق التجارية نحو غامبيا و شهرتها بطريق العبيد التي تربط السودان النيجيري بالمراكز التجارية الإنجليزية في غامبيا. ولكن مع مطلع القرن 19، تعرضت لأزمة سياسية خطيرة، هددت البلاد. من جراء صراعات حادة على الحكم، فزاد من حدته التدخل الفرنسي في البلاد التي شكل موقعها طيلة القرنين 18 و 19 آخر محطة للطرق التجارية نحو غامبيا و شهرتها بطريق العبيد التي تربط السودان النيجيري بالمراكز التجارية الإنجليزية في غامبيا.<sup>30</sup>

ونظراً لهذه الأهمية إن الفرنسيين راهنوا في إطار سياستهم الاستعمارية على منافسة الإنجليز في المنطقة للعمل على تحويل الطرق التجارية إلى الجهة التي

<sup>29</sup> الأزمي، المرجع السابق، ص. 429.

<sup>30</sup> Curtin (Ph.), 1971, " Jihad in West Africa, early phase and inter-relations, in Mauritania and Senegal", Journal of Africa history, XII, No 1, p. 18.

يسيطرون عليها تجاريا في نهر السنغال، وهي بلاد كلام Galam ( كاجاكا Gajaga ) ، إلا أن سقطت بأيدي الفرنسيين في النصف الثاني من القرن 19.

### – مملكة بامبوك (Bambuk) :

تشغل هذه المملكة الزاوية الشرقية التي يشكلها التقاء نهر السنغال برافده نهر الفاليمي Falmé، ومما يميز ساكنة هذا الإقليم، تعلقها بالوثنية، وعداؤها للإسلام، ورفضها الانصياع لحكم الدول الإسلامية التي كانت في نظرها توظف الدين للاستيلاء على ثروات البلاد الثمينة. وتشتمل أرضها على أغنى مناجم الذهب والحديد في السودان الغربي، الذي أسال لعاب التجار والمستكشفين الأجانب الذين حاولوا السيطرة على إنتاجه. أما فرنسا فلم تدخر جهدا للوصول إلى ذهب بامبوك؛ فوظفت من أجل ذلك كل الإمكانيات المادية والبشرية، بإرسالها لعدة بعثات استكشافية، ومغامرين على امتداد القرنين 17 و18، وخلال جزء مهم من القرن 19، إلى أن تمكنت من بسط هيمنتها بشكل رسمي في نهاية نفس القرن، بعد أن واجهت منافسة دول أوربية أخرى في المنطقة، كالبرتغال وإنجلترا وهولندا.<sup>31</sup>

ومما يلفت الانتباه في هذه البلاد أنه رغم ثرائها المعدني الكبير فإنها لم تلعب دوراً سياسياً مؤثراً في المنطقة، بل على العكس من ذلك كانت مستهدفة من قبل الكثير من القوى الخارجية والمجاورة، غير أن نقطتي ضعفها الكبيرتين تكمن أولاً في التكوين الطبقي لساكنتها، وما يترتب عن ذلك من استغلال بشع للمستضعفين على يد الأغنياء، والنقطة الثانية في تجزئة البلاد إلى إمارات مستقلة بعضها عن بعض، ويضاف إلى ذلك غياب إيديولوجية دينية ذات مبادئ سامية كالإسلام، وهذا ما جعل الحاج عمر يدخل البلاد فاتحاً في عام 1854.<sup>32</sup>

### – بلاد الخاسو:

<sup>31</sup> Deschamps (H.), 1976, L'Afrique noire précoloniale, de Madagascar et des Archipels, Presses universitaires de France, p. 48.

<sup>32</sup> أحمد الشكري، 2001، «جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال»، مقالة منشورة ضمن الندوة الدولية المنعقدة في دكار 1998، بمناسبة مرور مائتي سنة على ميلاد الشيخ الحاج عمر الفوتي تال، منشورات معهد البحوث والدراسات الإفريقية، الرباط، ص. 56.

تقع على ضفاف نهر البافنيك أحد روافد نهر السنغال، وتم إنشاء هذه المملكة عن طريق هجرات الفولانيين خلال القرن 17، وكانت تمتاز بموقع إستراتيجي هام، كمعبر لقوافل الذهب، وعبيد السودان النيجيري، كما اشتهرت بغناها بمعادن الذهب والفضة والنحاس، وبفضل جهود ملكها لابا (Labat)، أصبحت هذه المملكة القوة الأولى في أعالي السنغال، وفي إطار هذا التوسع تم إنشاء كونياكاري (Kuniakari) التي أصبحت عاصمة لها في عهد مؤسسها ديمباسيكا Demba sega (1746 - 1796)، الذي يعتبر من الملوك العظام الذين عرفهم الخاسو؛ ففي عهده عرفت المملكة أقصى مراحل توسعها، ولكن بموته تعرضت البلاد لحرب أهلية، زاد من حدتها التدخل الأجنبي، الذي تمثل في الفرنسيين، ثم الفوتيين؛ غايتهم من ذلك التحكم بتجارة أعالي السنغال.

هكذا إذاً، بدت الخاسو في بداية الغزو الفرنسي مقسمة إلى وحدات سياسية، ساهمت بهذه الوضعية ظروف داخلية تجلت بالخصوص في الانقسامات التي عرفتها الأسرة الحاكمة، إضافة إلى ظهور متطوعين إلى الحكم.

#### – مملكة فوتا جالون (Fouta Djallon):

تشغل هذه المملكة جنوب حوض السنغال الأدنى، وتعتبر حفيدة مملكة التكرور Toucouleur، وتاريخ هذه المملكة غريب الأطوار؛ فقد كان يحكمها بعض المهاجرين البيض من غانا أحياناً، ومن الولوف، ثم الفولاني. وتعتبر فوتا جالون الموطن الأصلي لشعب الفولاني، الذين قد أسلموا منذ عهد مبكر، وفي القرن 15 كونوا لأنفسهم أسرة حاكمة، استمرت في الحكم حتى نهاية القرن 19.<sup>33</sup>

#### – مملكة سيلا Silla :

تقع هذه المملكة قرب ملتقى نهري السنغال، والفاليمي، وكانت من الممالك القوية، وبعد تحول هذه المملكة إلى الإسلام على يد القائد "وار نديايي" أعلنت الحرب على جيرانها الوثنيين، وإلى ذلك الحين كانت هذه المملكة تتاجر بالملح، وبحلقات النحاس الأصفر، والقطن المنسوج على شكل قطع عريضة جداً.

<sup>33</sup> يحيى بوعزيز، 2001، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16 م إلى مطلع القرن 20 م، الجزائر: دار هومة، ص 164.

تقع في الحوض الأسفل لنهر السنغال، تطل على المحيط الأطلسي، وهي موطن الحاج عمر الذي عرف الإسلام منذ عدة قرون خلت؛ إذ يعود اعتناق أهاليها هذا الدين إلى القرن 11 على الأقل، على يد حركة عبد الله بن ياسين، ومنذ ذلك الوقت وإلى اليوم صار الإسلام عقيدة الأغلبية الساحقة من السكان. غير أنه خلال عصر ازدهار تجارة الرقيق بغرب إفريقيا في القرن 17، تعرض الإسلام بفوتاتور لبعض الهزات التي أبعدت الناس عن التشبث بالتعاليم الصحيحة لهذا الدين. ويرجع السبب في ذلك بالدرجة الأولى إلى الطبقة الحاكمة التي كانت معرفتها بالإسلام سطحية منذ دخول هذه الملة إلى المنطقة؛ فلا يمارسون من الشعائر إلا ما سهل عليهم مع محاولة تطويع بعضها، وملائمته مع العادات والتقاليد الموروثة.<sup>34</sup>

ومع أن هذه المرونة ساهمت بالفعل في تزايد عدد المسلمين بإفريقيا جنوب الصحراء، إلا أنها في نفس الوقت أبعدتهم عن الإسلام السني ومقاصده وغاياته، وحالت بذلك دون سعيهم إلى الاهتمام بالفقه الإسلامي، للتأكيد من مشروعية معاملاتهم الدنيوية من سننية العبادات التي يقومون بها؛ حتى ينالوا رضى الله ورسوله. هذه اللامبالاة في نظرنا، مع ضعف الإيمان هي التي حملت الحُكام ومعهم الرعية خلال القرنين 18 و19م، على الاشتغال بتجارة الرقيق، وتحقيق أرباح كبيرة بها دون الاكتراث بما قد ينجم عن ذلك من اكتناز أموال الحرام عن طريق الاتجار برقاب الناس من دون موجب شرعي.

ومعلوم أن أولئك الذين لا يتورعون عن مراكمة الأموال عن طريق تجارة الرقيق، لا يجدون أدنى حرج في ارتكاب محاذر كالغزو والسبي، والسلب والنهب، واستغلال المستضعفين من الطبقة الدنيا من الرعية. وبما أن الجنوب الموريتاني لا

<sup>34</sup> لفوتاتور أهمية في الإستراتيجية الفرنسية، نظراً لموقعها الهام على الطريق التجاري لمدينة سان لويس ، ونحو السودان وأعلى النهر. راجع : Barry ( B) ; La SÉNÉGAMBIE du XVe au XIXe siècle , op.cit , P 253.

<sup>35</sup> موسى كمر، 2001 ، أشهى العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر ؛ تحقيق وتقديم خديم محمد سعيد امباكي وأحمد الشكري الرباط : معهد الدراسات الإفريقية، ص 37 .

يفصله سوى نهر السنغال؛ فإن قبائل الترارزة والبراكنة نشطت أيضاً في تجارة الرقيق، وأسكتت أصوات الزوايا المنددة والمعارضة لهذه التجارة.<sup>36</sup>

إن الأسر الإسلامية سواءً من أصل الدينياكي أولاً، أو الطورودبي فيما بعد، التي تسلمت مقاليد السلطة في فوتاتور حتى القرن 19م، سارت على نفس النهج فيما يتعلق بانتهاك حرمانات الشريعة الإسلامية، وظلم الرعية، واحتقارها بفرض أثقل الضرائب عليها، وإخضاعها لكل أنواع السخرة والإذلال، رغم ما هو معروف تاريخياً من أن ثورة الطورودبي خلال القرن 17م، قامت بمساندة عامة الناس لرفع كل المظالم.

ومما ينهض دليلاً على أن شيء لم يتغير، قيام سلسلة من الثورات الإصلاحية على يد زعماء مسلمين، بعدما لوحظ من تساهل الطبقة الحاكمة مع المستعمر الفرنسي، الجائم بمدينة سانت لويس، وتسهيل تحركاته بالبلاد طوياً وعرضاً، لترويج بضاعته، وتأسيس المحطات التجارية،<sup>37</sup> واستكشاف بلدان أعالي النهر الغنية بالمعادن، والمفضية إلى السودان النيجيري؛ الذي خططت فرنسا للاستيلاء عليه انطلاقاً من السنغال، مقابل أداء ضرائب تافهة، لا قيمة لها، وتقديم بعض الهدايا والأسلحة لأولئك الحكام، معتمدة في مساعيها على خلق الضعائين، واتباع سياسة فرق تسد بين الأسر والعشائر المتنافسة على السلطة.

<sup>36</sup> Barry ( B ) ; La S n gambie du XVe au XIXe si cle, op.cit, p. 237.

<sup>37</sup> عبد الله عيسى، «المحطات التجارية في غرب إفريقيا وتأثيراتها»، مجلة قراءات إفريقية، العدد 44، مايو 2020، ص: 16-32.

## (المبحث الثاني)

### الحركات الإصلاحية كردة فعل لتأزم الأوضاع الداخلية في المنطقة

إن الثورات الإصلاحية التي قامت خلال القرنين 17 و19، ذات المرجعية الإسلامية، كانت تهدف إلى تصحيح الأوضاع، وتطبيق الشريعة الإسلامية، لكنها كانت تصطدم بطبيعة الحال، بجشع أولئك الذين يخافون على فقدان مراكزهم، وامتيازاتهم من الوثنيين، وبعض ضعاف العقيدة من المسلمين.

#### – حركة الإمام ناصر الدين (ت. 1674م):

انطلقت حركته الإصلاحية من جنوب موريتانيا، وشارك في الحرب التي مات فيها، والتي دارت بين قبائل حسان والزوايا، وهي الحرب المعروفة في كتب الحواريات التاريخية بحرب شُرْبِيَّه (1671-1677م)<sup>38</sup>، فضلاً عن الدواعي الدينية، فقد كان من أهم أسباب هذه الحرب التنافس القائم على السلطة بين الأرسنقراطيتين الزاوية والحسانية، فحرب شُرْبِيَّه حسب تعبير محمد المختار ولد السعد، كانت من حيث الجوهر صراعاً طبقياً على المصالح المادية والاقتصادية بين قطبي الزعامة في المجتمع الشنقيطي، أدى فيه العامل الديني دوراً مهماً، لا كسلاح إيديولوجي فقط، وإنما كمفهوم عقائدي ونظرة سياسية للعالم.<sup>39</sup>

#### امتداد الحركة إلى المجال السنغالي

بطبيعة الحال، لم تكن بلاد شنقيط بمعزل عن التحولات التي عرفتها السنغال بحكم الارتباط التاريخي ما بين المجالين. بعد الاقبال الكبير للناس على دعوة ناصر الدين، أعلن هذا الأخير الجهاد ضد الممالك السنغالية الوثنية، لتعرف الحركة بذلك مساراً جديداً في تطورها إلى حركة سياسية كان للإسلام دور كبير في تأطيرها.

<sup>38</sup> - أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، م، س، ص. 493. و شُرْبِيَّه كلمة بربرية تدل على شعار، كان أنصار الإمام يتخذونه لهم ميزة

<sup>39</sup> - محمد المختار ولد السعد، 1993، حرب شربيه أو أزمة القرن 17م في الجنوب الغربي الموريتاني، نواكشوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، ص. 97. ونحن نشاطر ولد السعد برأيه، ونضيف أن الوضع المتأزم الناتج عن القمع الذي تعرض له الشعب من قبل أرسنقراطي السلطة، المستعدين لبيع شعوبهم عند الحاجة ليشتروا منتجات أوروبية، هو ما يفسر الطابع الثوري لحركة ناصر الدين.

وقد حققت هذه الحركة في بداياتها نجاحات كبيرة في مجموع المناطق الشمالية من السنغال؛ إذ استطاعت الإطاحة بجميع الأرسقراطيات الحاكمة في فوتاتور، ووالو، وكايور، وجولف، وتعويضهم بزعماء مسلمين محليين.<sup>40</sup>

ويُستخلص من النصوص التي تناولت هذه الفترة، أنّ ناصر الدين لم يتوان في إرسال الرسل إلى ملوك السنغال، يدعوهم فيها إلى التوبة والالتزام بتعاليم الإسلام، ويحذرهم من مغبة بيع مواطنيهم عبيداً للنصارى.

ولنا أن نتساءل في هذا الصدد، عن الأسباب التي كانت وراء سرعة انضواء هذه الممالك تحت راية ناصر الدين؟

نعقد أنّ تفسير ذلك يكمن في سهولة تعبئة الناس ضد مجموعات زنجية تُعدّ غير إسلامية في المنظور المحلي، وحتى من أسلم منها سابقاً يعتبر إسلامه ناقصاً، وإنّ الجهاد لا يأخذ معناه الكامل إلا إذا كان موجهاً ضد شعوب غير إسلامية من أجل إدخالها للإسلام، كما سهلت الأزمة الاقتصادية أيضاً هذه الانتصارات، والتي كانت ناتجة عن توسيع تجارة الرقيق في النصف الثاني من القرن 17م، حيث أنّ تفاقم هذه التجارة صاحبه الكثير من ظلم واضطهاد الملوك للسواد الأعظم من السكان، فوجدوا في اعتناق الإسلام، والانضواء تحت لواء الحركة، مخرجاً لهم من تلك الوضعية المتردية.

يقول بوبكر باري (B. Barry) في هذا الصدد: ((..إنّ الآثار الناتجة عن تجارة الرقيق كانت من أهم العوامل في تكوين الأسس الإيمانية لحركة ناصر الدين، فهذه الحركة الإصلاحية، عارضت في البداية تجارة الرقيق وأدانت بشدة طغيان الملوك الذين شاركوا بكثرة في عمليات صيد البشر)).<sup>41</sup>

ولكن يبقى السؤال المطروح هنا: لماذا فشلت حركة ناصر الدين في تحقيق أهدافها رغم رجحان ميزان القوى لصالحها في البداية؟

لقد كان من الصعب على حركة ناصر الدين أن تتكلم بالنجاح لأسباب عديدة؛ فقد كان الحماس الديني هو محركها الرئيسي وملازماته المتمثلة في الانفعال وما ينجم عن ذلك من تحكيم العاطفة على العقل الذي طبع الكثير من تصرفاتها. فعلى الرغم من

<sup>40</sup> - La Sénégambie du XVe au XIXe siècle, p. 95.

<sup>41</sup> - La Sénégambie du XVe au XIXe siècle, p. 89.

الشجاعة الكبيرة وروح التضحية العالية التي برهن عليها الزوايا، والتي تعتبر إحدى مقومات النجاح في الحروب، لم يعرفوا كيف ينظمون الحرب على الصعيدين الاستراتيجي والتكتيكي. فعدم احترامهم لفن الحرب (عكس خصمهم) واندفاعهم العاطفي أدى بهم إلى عدم الاكتراث بأبسط القواعد العسكرية؛ حيث كانوا يتسابقون للموت (الاستشهاد) ويلقون بكل قواهم في المعركة في آن واحد، ويقدمون على المعارك دونما اعتبار للفعالية العسكرية، إلى جانب اللامبالاة وعدم اليقظة، فضلاً عن روح الشرعية المفرطة التي تصل أحياناً إلى نقيضها.<sup>42</sup>

كما انقسموا في النقاشات لتحديد طبيعة الخصم، هل هو مسلم أو مشرك أو كافر؟ فأسفر عن تلك الحيرة والشك في شرعية الحركة أو عدمها على مستوى الزوايا. كما أن تشددهم في الدين لعب دوراً في ابتعاد البعض عنهم وتراجع البعض الآخر. وشكلت المبالغة في تقدير قوة الزوايا لقوتهم وجسامة طموحاتهم سبباً آخر من أسباب هزيمتهم. فقد فتحوا كثير من الأقاليم السنغالية، وعينوا عليها ولاة دونما اعتبار لواقعها السياسي والاجتماعي، وربما الاقتصادي؛ إذ لا يستبعد أن تكون قد حصلت تجاوزات جبائية، كما أن رداءة المحاصيل الزراعية ابتداءً من عام 1673 - جراء ويلات الحرب - قد يكون من بين الأسباب الأساسية لانهايار الحركة السريع في المناطق السنغالية؛ نظراً لما تركته من انعكاسات سلبية على السواد الأعظم من السكان. إن ذلك هو ما يفسر - في رأينا - سرعة تخلي جزء هام من سكان الممالك السنغالية عن الحركة بعد التجاوب العارم معها في البداية، واستجابتهم للعمل التخريبي الذي قام به الفرنسيون ضدها، ذلك العمل الذي لعب دوراً هاماً - هو الآخر - في فشل الحركة والقضاء النهائي عليها. إذ لم يكتفوا بالتحريض ضدها بل اشتركوا عملياً في محاربتها،<sup>43</sup> وإن كان العامل الداخلي (نواقض الحركة الذاتية) هو الحاسم في هزيمة الزوايا العسكرية في تلك

<sup>42</sup> - ولد السعد، حرب شريبه، المرجع السابق، ص. 170.

<sup>43</sup> - الفرنسيون في سانت لويس كانوا يتخوفون بشكل كبير من قيام أي كيان سياسي في نهر السنغال، يستطيع تحت غطاء اسلامي أن يفرض شروطاً على الحركة التجارية، فسانت لويس كانت تريد استعادة تجارة الرقيق الضرورية جداً لحركة الازدهار في العالم الجديد، لتمتلك بذلك من المحافظة على التجارة الثلاثية. ولأنها كانت تدرك الخطر الذي تشكله هذه الحركة على مصالحها فقد قامت بتقديم الدعم العسكري والمالي المباشر لمختلف الأرسقراطيين المنهزمين، لتساعدهم على استرجاع سلطانهم. على الرغم من رواية شامبونو الواضحة جداً في هذا المجال، إلا أن فيليب كورتين يحاول أن يفي أن علاقة ما بين الوجود الأوروبي والثورات الشعبية التي قامت في السنغال، ويدرسها منفصلة عن محيطها. راجع:

- Curtin (Ph.), 1971, " Jihad in West Africa, early phase and inter-relations, in Mauritania and Senegal", Jornal of Africa history, XII, No 1, p. 50.

الحرب. وفي نفس الوقت قاموا بفتح جبهة داخلية ضد المغفرة مشتتين بذلك جهودهم وواضعين أنفسهم بين المطرقة والسندان.<sup>44</sup>

وفي هذا الظرف الدقيق قُتل الإمام ناصر الدين عام 1085هـ/1674م، وشكلت وفاته المبكرة خسارة لا تعوض بالنسبة لحركة الزوايا؛ إذ كان عقلهم المدبر وزعيمهم بلا منازع، فبعد موته لم يجد الزوايا قائداً بكل معنى الكلمة خاصة وأنه لم يُعين خلفاً له وإنما ترك نظاماً لحق التصدر تأسياً بالرسول صلى الله عليه وسلم، ووجدت خلافاتهم التقليدية أرضية خصبة نمت فيها وتطورت. وهكذا حلت الانقسامات محل الاتحاد، هذه الانقسامات كانت كفيلة وحدها بافشال حركة الزوايا؛ إذ أن الجيش المتواني لا ينفع الصديق ولا يضر العدو.<sup>45</sup>

تلك كانت أبرز أحداث حركة ناصر الدين المعروفة بجانبها العسكري باسم شُرْبِيَّه. فما أبرز خصائصها بالنسبة لموضوعنا؟

### — خصائص الحركة:

إنَّ أبرز خصائص هذه الحركة تلخصت بأنها حملت الإسلام المجاهد لأول مرة في بلاد السنغال منذ عهد المرابطين، بعد قرون من الفراغ السياسي في الصحراء الصنهاجية، وهذا الإسلام الفاعل سياسياً وعسكرياً هو الذي أثار دهشة الفرنسيين الذين لم يكونوا يتصورون رجل الدين إلا درويشاً زاهداً، ومن ثم افتتح لويس شامبونو (L. Chamboneau) حديثه عن الحركة بالتأكيد أنها أمر لم يسبق له مثيل، فيقول: ((وما رأى الناس قط مُرابطاً أو راهباً - وهو الذي يجب أن يكون تواضعه عميقاً وزهده متصلاً، وألا يهتم بثروات الدول أكثر من اهتمامه بالطين، يغادر وطنه ويذهب إلى بلد بعيد ليدفع أهله إلى الثورة، ويجعلهم يقتلون أو يطردون ملوكهم بحجة الدين والوحي الإلهي ليستولي عليهم ويحكمهم)).<sup>46</sup>

وفي هذا الجانب، عارض جماعة من الفقهاء حركة ناصر الدين، بحجة الفتنة التي قد تحدث من اهتمام رجال الدين بشؤون السياسة وقد استطاع ناصر الدين بفضل

<sup>44</sup> - ولد السعد، حرب شُرْبِيَّه، المرجع السابق، ص. 172.

<sup>45</sup> - ولد السعد، حرب شُرْبِيَّه، المرجع السابق، ص. 173.

<sup>46</sup> - Louis, (Ch.), "L'histoire du Touben ou changement", op.cit., p. 338.

هذا الإسلام أن يجمع سكان حوض نهر السنغال كلهم تقريباً في دولة واحدة تحت راية دعوة إسلامية، وقد تم له ذلك بالاعتماد على السكان والارتباط بمصالحهم، فلم يكن يفتح البلاد بل كان يدعو سكانها فيثورون.<sup>47</sup>

وقد شكلت هذه السلطة الموحدة المرتبطة بمصالح جماهيرها خطراً كبيراً على النفوذ الفرنسي الناشئ، وكنا أشرنا فيما سبق إلى بعض ملامح الموقف الفرنسي من حركة ناصر الدين، وهو موقف عدائي، منذ البداية؛ حيث عمل أصحابه على تفكيك حركته، فأعانوا أعدائه بالمال والسلاح، وأبوا أن يقيموا مع ناصر الدين علاقات مسالمة حين عرضها عليهم.

ولهذا الموقف - في نظرنا - أسباب سياسية واقتصادية واضحة، فقد أوقف ناصر الدين تجارة الرقيق مع الفرنسيين من منطق ديني واضح، هو منع بيع المسلم للكافر. ولا يخفي شامبونو انزعاجه من تأثير هذا ((المرابط النحيف، حليق الرأس، على حركة النخاسة في منطقة ضفة النهر السنغالي)).<sup>48</sup> ويزيد التاجر الفرنسي "شامبونو" الأمر وضوحاً، عندما يتحدث بكل أسى عن أتباع الإمام ناصر الدين، حيث يقول: ((إنهم يزدروننا كثيراً، بسبب الاختلاف بين ديننا وشعوتهم، ويوهمون شعوبهم أننا لا نشترى العبيد إلا لنأكلهم، ومنذ أن أصبحوا سادة البلاد، فإنَّ عبداً واحداً لم يدخل إلى سفننا)).<sup>49</sup>

كما كان من المنتظر أن يفاوضهم في شأن سائر البضائع من موقف القوة والاستقلال، وذلك على العكس تماماً من الملوك التقليديين، الذين أصبحوا عبيد عاداتهم الاستهلاكية.<sup>50</sup> وما من شك، أن حركة ناصر الدين لو أُتيح لها النجاح لكانت ذات أثر كبير في تاريخ السنغال، ولانطبعت حياة شعوبها بهذه الخصائص التي ذكرناها، ولكن حتى وهي مهزومة كانت لها نتائج ذات بال.

<sup>47</sup> أحمد ولد الحسن، 1989، "حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الأول، جامعة نواكشوط، ص. 11.

<sup>48</sup> - Louis,(Ch.), "L'histoire du Touben ou changement ", op.cit., p. 339.

<sup>49</sup> - Ibidem, p. 339.

<sup>50</sup> - أحمد ولد الحسن، المرجع السابق، ص. 11.

## ما هي نتائج الحركة:

### 1. في بلاد شنقيط:

أدت هزيمة الحركة إلى وضع حد نهائي لمحاولات الجهاد، وإلى تكريس التقسيم الوظيفي الذي يمنع بموجبه على حملة العلم والدين، حمل السلاح للهجوم أو التدخل في شؤون السلطة العسكرية، وقد رفعوا شعاراً (من حمل السلاح فقد ترك السلاح)؛ ولكن إلغاء الخيار العسكري لم يترك قبائل الزوايا مكتوفة الأيدي، بل إنَّها نشطت نشاطاً بالغاً في ميدانين مرتبطين بالثقافة العربية الإسلامية والتصوف الطرقي، فازدهرت في هذه الصحراء الشنقيطية علوم الشرع الإسلامي واللغة العربية ازدهاراً كبيراً، وأصبحت الطرق الصوفية مؤسسات فكرية واقتصادية ذات إشعاع عظيم، ثم إنَّ انتصار المغفرة - وهم القبائل العربية المعادية لناصر الدين - وما نجم عنها من قيام الإمارات المغفرية قد عجل بتعريب فئات عريضة من سكان بلاد شنقيط، وسادت لغتهم الحسانية، فكانت أداة توحيد للمجتمع العربي الشنقيطي.<sup>51</sup>

وغني عن البيان، أنَّ حركة ناصر الدين تركت آثار سلبية على اقتصاد المنطقة؛ إذ أدت إلى حدوث أزمة اقتصادية حادة جراء عدة سنوات من القتال، وما رافق ذلك من انشغال عن الأنشطة الاقتصادية، وتحطيم لوسائل الإنتاج، وإنهاك للقوى المنتجة، وقد سار كل ذلك بالمنطقة نحو المزيد من الروابط مع الأوروبيين بالمناطق الساحلية. ونعتقد أنَّ شُرْبَّه لم تكن صراعاً معزولاً في منطقة الجنوب الغربي الشنقيطي، بل كانت حلقة في سلسلة صراعات سياسية وعسكرية غطت كامل المجال الشنقيطي تقريباً، وأنَّ حصار احنيكات بغداده واحداً من أبرز تعبيراتها.<sup>52</sup>

### 2. في ممالك الضفة الجنوبية من النهر:

إنَّ فشل حركة ناصر الدين عسكرياً لا يعني فشلها في المجالات الأخرى وخاصة في المجال الديني؛ فقد عمقت الوعي الديني لدى السكان، وعملت على إحياء

<sup>51</sup> - المرجع نفسه، ص. 12.  
<sup>52</sup> - المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر، ص. 216.

روح الجهاد في المنطقة، وتوحيد دول حوض النهر، وبفضلها تحول الإسلام في المنطقة من إسلام بلاط إلى إسلام شعوب.<sup>53</sup>

ولا يمكننا فهم التحول الظاهر في انتقال الإسلام من البلاط إلى حياة العامة، وتحوله إلى سلاح بأيدي الشعوب، وراية لحركات الثوار إلا بالرجوع إلى حركة ناصر الدين، التي اعتمدت على أساليب شعبية في الدعوة والعمل السياسي، وربطت بين الإسلام وبين مطالب التغيير عند الجماهير العريضة، وقد كان من شأن هزيمة الحركة على أيدي التحالف الأرسنقراطي الفرنسي، أن يُشكل المهاد الصالح لهذا المسار التاريخي؛ إذ ارتبط ملوك السنغال بالتجارة الفرنسية وما تمنحهم إياه من امتيازات، وما يقتضيه التعامل معها من البطش بالشعوب واستغلال ثرواتها وبيعها عبيداً، بينما بقيت عامة الشعب متجهة إلى الإيديولوجية الإسلامية الحامية من ظلم الملوك والنصارى.<sup>54</sup> ومن هنا، يسهل على المرء أن يفهم انتقال الإسلام المجاهد إلى الضفة الجنوبية من النهر بعد أن هُزم في الشمالية، ويتضح له أن الثورات المتتالية التي أدت إلى قيام الدول الإسلامية في بوندو، وفوتا جالون، وفوتاتور، وحركات الجهاد في القرن 19م، إنما كانت امتداداً لحركة ناصر الدين واستثمارها للرصيد الإسلامي الشعبي الذي أنشأته وخلفته وراءها، يقول الباحث الأمريكي فيليب كرتين في هذا الصدد: ((...إنَّ ظهور هذه السلسلة من الثورات الدينية التي بدأت بالجنوب الشنقيطي، واتبعت خطأً متصلاً في تماسها وتداخلها عبر الشريط الساحلي، يمكن أن يكون ظاهرة متميزة في حد ذاته، وقد تكون له انعكاسات كبيرة على تأويل التاريخ الديني في غرب إفريقيا)).<sup>55</sup>

جُملة القول، إنَّ حركة ناصر الدين الإسلامية، كان ضمن أهدافها المتعددة، بوابة للحرية، ومحاربة الاسترقاق، والدعوة للإسلام.

### 3. في العلاقات بين شعوب المنطقة:

لقد أدى قيام الحركة وهزيمتها، إلى ربط جسور تواصل مستمر بين شعوب المنطقة وخاصة بين الشعب العربي في بلاد شنقيط وجيرانه من الشعوب المسلمة في

<sup>53</sup> - La SÉNÉGAMBIE du XVe au XIXe siècle, p. 94.

<sup>54</sup> - "حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا"، ص. 13.

<sup>55</sup>- Curtin (Ph.), 1971, " Jihad in West Africa, early phase and inter-relations, in Mauritania and Senegal", op, cit., p. 23.

حوض نهر السنغال، وكان هذا التواصل أخذاً وعتاءً، بيد أننا نقف منه هنا على ميزتين أساسيتين، فقد تلقى سكان الضفة الجنوبية من النهر عن عرب بلاد شنقيط الثقافة العربية الإسلامية والطرق الصوفية التي ازدهرت على أيديهم بعد أن تفرغ لها أصحابها، ولا فائدة من استعراض التفاصيل، بل نجل القول: ((...إنّ تأثير هؤلاء الزوايا العلمي والفكري أمر لا يحتاج إلى برهان، فمحمد اليدالي، والشيخ سيدي المختار الكنتي (ت. 1811م)، والشيخ محمد الحافظ العلوي (ت. 1830م)، والشيخ سيدنا الكبير (ت. 1870م)، وغيرهم كثيرون كان لهم تلاميذ ومريدون نشروا المعارف الإسلامية المعمقة في معظم السنغال)).<sup>56</sup>

وفي المقابل، أبدى زوايا شنقيط اهتماماً كبيراً بالجهاد الإسلامي في السنغال، وناصروا أصحابه بكل ما أوتوا من قوة، فكأنما رأوا فيهم تحقيقاً لحلمهم المكبوت. ويكفي مثلاً على ما نقول، أنّ المامي عبد القادر، رغم أنه قد قُتل أمير الترازة اعلي الكوري (ت. 1786م) بعد هزيمة منكرة، فإنه قد لقي تأييداً واسعاً في صفوف زوايا هذه الإمارة بالذات، حتى قال فيه حرمه بن عبد الجليل العلوي:

قد فُتت كل ملوك الأرض قاطبة      و فُتت في العلم والعرفان كل ولي  
ما سار سيرك في شأو التقى أحد      إلا سميتهك عبد القادر الجيلي<sup>57</sup>

كما أنّ الشيخ محمد المامي بن حبيب الله (ت. 1292هـ/1875)، كان يفخر بأنّ أمه قد سمته "المامي" تيمناً بهذا القائد الإسلامي العظيم، كما وجه قصيدة طويلة إلى الحاج عمر الفوتي (ت. 1864م) يهنئه فيها بانتصاراته ويُسدي إليه نصائحه، ويشكو إليه وضع بلاده السياسي.<sup>58</sup>

<sup>56</sup> - «حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا»، ص. 14.

<sup>57</sup> - «حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا»، ص. 15.

<sup>58</sup> - المرجع نفسه، ص. 15.

## حركة سليمان بال ونتائجها (1720-1776م):

ينسب إلى بلاد فوتاتور، ومنطقة فوتاتور – كما نعلم – من أقدم المناطق الإفريقية صلة بالإسلام؛ إذ يعود تاريخ الدعوة الإسلامية بهذه المنطقة إلى مرحلة ما قبل الحركة المرابطية،<sup>59</sup> وقد تأثر سليمان بال بدوره بثورة ناصر الدين. ويرجع سبب هذه الحركة بالدرجة الأولى كما تتحدث عن ذلك المصادر، إلى تجذر واستمرار الأزمة الخانقة التي وصلت إليها إفريقيا الغربية عامة وفوتاتور خاصة بالنظر لموقعها القريب من الساحل الأطلسي، الذي يجعلها عرضة للأطماع الأوروبية، وبسبب كثرة الاقتتال بين القبائل، إما من أجل الوصول إلى السلطة، أو من أجل احتكار سلع تجارية إفريقية مُعَيَّنة في مقدمتها الرقيق.

وتأتي أهمية فوتاتور في هذا الصدد من كونها أقرب ما تكون إلى البحر، وهذا يعني أنّ من كانت لهم القدرة على الوصول إلى السلطة واحتكار السلع المطلوبة من الأوروبيين على الخصوص، فإنهم سيحققون من وراء ذلك أرباحاً طائلة، ويحكمون في نفس الوقت على منافسيهم بالإفلاس في أعمالهم التجارية، من جراء سيطرة الأولين على الموانئ البحرية، وحرمان الأخيرين من الاستفادة من خدماتها، في وقت أصبحت فيه تجارة القوافل الصحراوية تتراجع أهميتها على المستوى القاري منذ القرن 16م لفائدة النقل البحري، يُضاف إلى ما سبق سياسة السلب والنهب التي مارسها الأرسقراطيات الحاكمة على رعيّتها، بحيث كان حافزاً لاعتمادها الإسلام، وبالإضافة إلى ضغط البيضان (الشناقطة) على المجال الفوتي للاستفادة من مزايا.<sup>60</sup>

كل هذه العوامل أدت إلى تفجير حركة سليمان بال، فهل سينجح في حركته الإصلاحية أم سيتم القضاء عليه كما حصل لحركة ناصر الدين؟

تمكّن سليمان بال من الإعلان عن نفسه قائداً للثورة الإسلامية الإصلاحية بفوتاتور عام 1776 م، بعد رجوعه إليها من كايور (Caïor) التي كان يدرس بمدرستها بـير (Pir)<sup>61</sup>، ورغم أنّ الفترة التي تحمّل فيها مسؤولية تصحيح الأوضاع كانت

<sup>59</sup> أبي عبيد البكري، 1965، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك، حققه وترجمه للفرنسية دوسلان، باريس، ميزونوف، ص. 172.

<sup>60</sup> – الأزمي، المرجع السابق، ص. 445.

<sup>61</sup> – بير: تقع هذه المدينة في إقليم كايور Caïor جنوب مدينة سان لويس Saint Louis، وهو إقليم يُحد غرباً بالمحيط الأطلسي.

قصيرة على ما يبدو، إذ مات في نفس السنة التي تفجرت فيها الثورة، فإنه حقق بعض الأهداف بعد أن قضى على نظام ملوك الدينياك (Dénianke) الوثنيين بصفة نهائية، وضرب بيد من حديد الذين اتخذوا من الإسلام وسيلة للقهر، كما استطاع أن يُبعد خطر الشناقطة عن بلاده ولو لحين.<sup>62</sup>

وبعد هذه الفاجعة - أي وفاته - التي كادت أن تعصف بمنجزات سليمان بال، تقلد أمور الحكم بعده الإمام عبد القادر (1729 - 1807م)، لتشهد المنطقة بعد ذلك ميلاد دولة إسلامية قوية في فوتاتور.<sup>63</sup>

### حركة الإمام عبد القادر (1729-1807م):

كان رفيقاً لسليمان بال في الدراسة وفي إعداد الثورة بفوتاتور، وكان خير خلف لخير سلف في مواصلة الإصلاح والثورة على الأوضاع الفاسدة. ويمكن القول، أن هذه البلاد لم تشهد حُكماً إسلامياً بمعنى الكلمة إلا في عهده. وأهم المنجزات السياسية والتصحيحية المنسوبة إليه:

- رفع مكانة فوتاتور عالياً من حيث القوة والمناعة؛ بحيث أصبحت الكثير من المناطق المجاورة تدفع الجزية والإتاوات السنوية بما في ذلك البراكنة والترارزة جنوب بلاد شنقيط.

- سعي فرنسي سانت لويس (Saint Louis) إلى الاتصال به بغية التفاوض معه على ضمان أمن مصالحها التجارية والاستكشافية بالمنطقة. وقد أمكن بالفعل إبرام اتفاقية بين الجانبين في 13 مارس 1785م مقابل أداء ضريبة للإمام عبد القادر.<sup>64</sup>

وقد ترتب عن هذه الإنجازات تحسين في الأداء والسلوك على المستوى الإداري والاقتصادي والعسكري، صارت معه فوتاتور تُملي شروطها على فرنسا، وتحول دون تحرشات بلاد شنقيط (موريتانيا)، وتعمل بين الفينة والأخرى على توسيع مجالها خصوصاً في حدودها الشرقية على حساب مملكة بوندو (Bundu) مثلاً.

<sup>62</sup> - الأزمي، المرجع السابق، ص. 447.

<sup>63</sup> - الشكري، "جهاد الحاج عمر تال في أعالي نهر السنغال، المرجع السابق، ص. 52.

<sup>64</sup> - أحمد الأزمي، المرجع السابق، ص. 448.

ولهذا، تتفق جُل المصادر المحلية على القول بأنّ دولتين قويتين كانتا دائمتي الأطماع في ممالك السنغال الأعلى الغنية اقتصادياً والضعيفة سياسياً وعسكرياً، إحداهما تقع إلى الشمال الشرقي من نهر السنغال وهي دولة كارطا (Karta) الوثنية. وثانيهما، فوتاتور من الجهة الغربية.

لكن سوء حظ هذه البلاد لم تطل فترة حكم الإمام عبد القادر. وإذا صحّ ما يُقال من أنّ الثورة تآكل أبناءها، فإنّ أعداء الإصلاح من أبناء وطنه خططوا بتحالف مع قوى خارجية للتخلص منه، لأنهم رأوا في صرامة تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية في عهده ما يُحرّمهم الكثير من الامتيازات التي اعتادوا الاستفادة منها.<sup>65</sup>

وهكذا ما أن علموا بفشل حملته في معركة بكايور (Kayor) في الجنوب الغربي للبلاد سنة 1796م، حتى شرعوا في اتخاذ الإجراءات الضرورية لعزله بواسطة مجلس الشورى المعروف محلياً بالجاكوردي (Jaggorde)، كما تراجعت فرنسا عن الاتفاقية السابقة ورفضت أداء الضرائب المتفق عليها في اتفاقية 1785م، ونفذت حملات تأديبية في مطلع القرن 19م ضد النظام الإسلامي، فأحرقت القرى وسلبت ونهبت، وقد حاول الإمام عبد القادر استجماع قواته، واسترجاع هيمنته بالتحالف مع قرى مجاورة مثل الخاسو (Khasso) وكاديكا (Gadjaga) إلا أنّ ذلك لم ينعف أمام كثرة التنكلات الحاقدة عليه من داخل البلاد وخارجها؛ بدليل أنه استشهد سنة 1807م في معركة تحالف ضده عدّة دول وثنية؛ بغية وضع حد للمد الإسلامي، في مقدمتها كارطا وبوندو وكاميرا بتنسيق مع قوى فوتية.

يمكن القول، لقد عادت البلاد إثر اختفاء هذه الشخصية إلى ما كانت عليه من الفوضى واستغلال النفوذ، وشراء منصب الإمامة من مجلس الجاكوردي (Jaggorde) (الشورى). وهو ما أوصل البلاد إلى حالة من الضعف، فتح الباب على مصارعيه للتدخل الفرنسي التدريجي في غرب إفريقيا مع بداية القرن 19م، لتتمكن انطلاقاً من فوتاتور من السيطرة على كامل نهر السنغال وروافده كمرحلة ضرورية لبطن نفوذها على السودان النيجيري مع نهاية القرن.

<sup>65</sup> - عبدالله عيسى، الاستعمار الفرنسي في السنغال، المرجع السابق، ص. 44.

خلاصة القول، تبين لنا في الصفحات السابقة، أن الوضع السياسي في منطقة إفريقيا الغربية، اتسم خلال القرنين 17 و 18م بالفوضى، وزاد التدخل الأوروبي من خلال التجارة الأطلسية في تآزيم الوضع؛ حيث استفحلت ظاهرة التفكك السياسي؛ الشيء الذي ساعد الزعماء، والارستقراطيات المحلية المرتبطة بالخاصة، على إحياء القيم الوثنية، والانخراط في بناء نظام سياسي واجتماعي جديد، اتسم بالعنف الاجتماعي وعسكرة السلطة.

ومجموع هذه المعطيات على سلبيتها، وفرت أرضية خصبة لظهور زعامات روحية، حاولت جمع شتات المسلمين بالمنطقة بهدف إقامة دولة إسلامية قوية، قادرة على تقويم الأوضاع الداخلية المتدهورة، ومستعدة لمواجهة الضغط الأوروبي المتنامي والمستفحل.

الخلاصة التي تتأدى لنا عن هذه الحركات الإصلاحية، أنها وسعت دائرة انتشار الإسلام في منطقة إفريقيا الغربية ككل؛ وعمقت الاحساس لدى الأهالي بانتمائهم لدار الإسلام.

## (المبحث الثالث)

### تزايد الأطماع الأوروبية في منطقة إفريقيا الغربية

تعاقبت على المنطقة دول أوروبية عديدة من بينها، البرتغال وهولندا وإنجلترا وأخيراً فرنسا، التي تمكنت بانفرادها بحكم السنغال. ويمكننا القول، أن الحضور الأوروبي هذا، عرف تطوراً ملحوظاً بالتزامن مع بداية انكماش الحضارة العربية الإسلامية، وتراجع قوتها الاقتصادية منذ مطلع القرن 15م. كما أن تتبعنا لأبرز مراحل هذا الوجود، سيمكننا في معرفة الدور الكبير الذي قامت به الزاوية التيجانية في مقاومة الاستعمار الفرنسي؛ والذي وقع على عاتقها هذه المهمة، وذلك بالنظر إلى الصعوبات والعراقيل الكبرى التي واجهها زعماء التيجانية أمام قوة وعظمة القوى الفرنسية.

#### أولاً - الأطماع البرتغالية:

شكل وصول البرتغاليين إلى ساحل إفريقيا الغربية خلال النصف الثاني من القرن 15م، نقطة تحول هامة في تاريخ المنطقة؛<sup>66</sup> إذ أدى إلى بداية تفسخ العلاقات القائمة على التبادل التجاري عبر الصحراء، وحلول علاقات جديدة من التبعية ربطت الممالك السنغامية بالتجارة الأوروبية.<sup>67</sup>

وقد حرص ملوك البرتغال على امتداد القرنين 15 و 16م، على التزود من منابعها الأصلية؛ لذلك قاموا بمحاولات للوصول إلى ذهب السودان عبر المسالك النهرية للسنغال وخاصة نهر غامبيا،<sup>68</sup> إلا أن تلك المغامرة تعثرت بسبب صعوبة

<sup>66</sup> - لنا أن نتساءل هنا، عن الأسباب التي جعلت البرتغاليين يسبقون غيرهم من الأوروبيين في التنافس على اكتشاف ساحل إفريقيا الغربي. ولعل من أهم الأسباب التي تتبادر إلى الذهن هنا، كون البرتغال بحكم موقعها الجغرافي بات البحر متنفساً مركزياً لطموحها، فهي معزولة عن أوروبا بجارتها الكبيرة "إسبانيا" مما يمنعها من محاولة التوسع في نطاق الصراع على المجال الحيوي داخل القارة الأوروبية. وهي من جهة ثانية، لا تمتلك أي منفذ على البحر الأبيض المتوسط عكس إسبانيا وفرنسا. ومن جهة أخرى، فإن البرتغال كانت أثناء القرن الخامس عشر، شأنها في ذلك شأن إسبانيا، تعيش أوضاعاً سياسية أكثر استقراراً من بقية الدول الأوروبية التي كانت حينئذ مشغولة بمشاكلها الخاصة. فضلاً عن ذلك، فإن سياسة هنري الملاح قد جعلت البرتغال تنبؤاً مكانة السبق في حركة الكشوفات الجغرافية تلك، فقد جمع ذلك الأمير الملاح الذي يقال أنه لم يركب البحر إلا مرة واحدة، مختلف المعلومات الجغرافية والملاحية المتاحة في ذلك الوقت، وكوّن مكتبة ضخمة تضم الكثير من الكتب الجغرافية والخرائط من مختلف أنحاء المعمورة، كما قرّب العلماء والجغرافيين واعتنى بصناعة السفن حتى غدت البرتغال بفضلها تملك أسطولاً حديثاً يستطيع اقتحام البحار. وبغض النظر عن العوامل والأسباب التي جعلت البرتغاليين يسبقون غيرهم من الأوروبيين إلى اكتشاف فضاءنا الجغرافي، فإن رحالي هذه الفترة قد خلفوا أولى المصادر الأوروبية المتعلقة بتاريخ السنغامبيا. راجع: محمود بن محمّذ، المجتمع البيضاوي في القرن 19م، م.س، ص. 59.

<sup>67</sup> - La Sénégambie du XVe au XIXe siècle, p. 70.

<sup>68</sup> - يوصف الذهب بأنه المادة الأولى التي كانت وراء تنشيط التبادل التجاري بين إفريقيا الغربية وبلدان العالم منذ القديم، وصلت تجارتها بالخصوص إلى قمة ازدهارها خلال حكم مملكة غانة ومالي وخاصة بعد رحلة منسى موسى وأسكيا الحاج محمد ملك سنغاي إلى الحج، اللذين حملا إلى الحجاز كميات ضخمة من الذهب الخالص، وأصبحت إفريقيا الغربية بذلك قبلة التجار من كل جهة ومكان،

الملاحة في نهر السنغال، بوجود شلال الفيلو (Felu)، وسيطرت الماندينغ على نهر غامبيا؛ مما أجبرهم على القيام بتجارتهم على الساحل الأطلسي، وعلى مصبات نهري السنغال وغامبيا، انطلاقاً من جزر الرأس الأخضر.<sup>69</sup>

وعلى الرغم من تلك الصعوبات علينا التأكيد بأن البرتغاليين، هم أول من أنشأ محطات تجارية كانت في الواقع نقط الالتقاء التجارية الأولى بين إفريقيا الغربية وأوروبا.

وإذا كان مركز آركوين (Arquin)<sup>70</sup> لم يف بحاجيات أو متطلبات الوكلاء التجاريين من العبيد والذهب، على حد قول كودينييو، والذي حدد المتوسط السنوي من مادة الذهب المصدرة ما بين 30 كغ إلى 40 كغ سنوياً، عبر أكسيم (Axum) خلال عامي 1499 و 1501م،<sup>71</sup> فإن وصولهم إلى أعالي نهر غامبيا مكّنهم من خلق طرق جديدة؛ لتصبح وولي (Wuli)<sup>72</sup> و كانتورا (Kantura) محطات أساسية لاستقبال ذهب مناجم بامبوك وبوري، الذي كان تصريفه في السابق يتجه نحو مراكز الحوض الأوسط لنهر النيجر، ومنها ينقل إلى المراكز التجارية شمال الصحراء.<sup>73</sup>

يقول فالنتين فرناندس (V. Fernandes) بهذا الصدد: "إن وصول البرتغاليين إلى أعالي غامبيا يعتبر منعطفاً تاريخياً بالنسبة لذهب السودان، وكان هذا النبأ مذهلاً، حيث استقطب التجار من كل صوب، وتوافد على كانتورا تجار تنبكت وفوتجالون و كاو".<sup>74</sup> وتدلنا هذه الأرقام على أهمية غامبيا في تسويق الذهب السوداني قبل أن يتراجع لصالح تجارة الرقيق. وبالإضافة إلى تجارة الذهب، فقد احتلت تجارة الجلود أهمية كبيرة في التجارة البرتغالية نظراً لتزايد طلبها في أوروبا، حيث بلغت الكمية المصدرة عام

---

مما أكسبها شهرة عالمية وصلت إلى كل البقاع. راجع: تاريخ الفتاش، ص. 16-65. تاريخ السودان، ص. 72-73. مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، م.س، ص. 212.

<sup>69</sup>- Godinho, Magalhães, V, 1969, l'Economie de l'empire portugais aux XV XVI siècle, Paris, MSH, p.190.

<sup>70</sup>- آركوين: جزيرة تقع على الساحل الأطلسي الموريتاني على بعد حوالي 130 كم إلى الجنوب من نواذيبو، ويبلغ طول هذه الجزيرة حوالي 7 كم وعرضها حوالي 4 كم. وتسمى أيضاً ب: أكادير و أكادير دومة. وقد تنافست أمم أوربية عديدة خلال القرون الماضية للسيطرة على هذه الجزيرة التي تعتبر مركزاً للتبادل التجاري مع الشناقطة. راجع: المجتمع البيضاني، هامش صفحة 58.

<sup>71</sup>- La Sénégambie du XV<sup>e</sup> au XIX<sup>e</sup> siècle, p. 73.

<sup>72</sup>- مركز تجاري هام ويعتبر نقطة انطلاق القوافل التي تربط غامبيا بالشمال في أعالي السنغال، ويربطه بالشرق مع النيجر.

<sup>73</sup>- La Sénégambie du XV<sup>e</sup> au XIX<sup>e</sup> siècle, p. 71.

<sup>74</sup>- Fernandes (V.), 1951, Description de la côte occidentale d'Afrique Sénégal au Cap de Monte, Archipels, 1506-1510, op.cit, p. 305.

1660م، 150 ألف قطعة. وقد صدر مركز روفسك (Rufisque)<sup>75</sup> وحده ما بين 35 و 40 ألف قطعة عام 1660 بحسب ما يذكره بيكر باري.<sup>76</sup>

إنّ تجارة الجلد هذه، قد أعطت في وقت باكر أهمية كبيرة لهضاب فوتا المناسبة لتربية الماشية، الأمر الذي سيُسرع من عملية التمايز الاجتماعي في هذا الكيان من السنغامبيا. وبالإضافة إلى الجلود هناك مادة العاج والكولا، وقد قدر كورتين الكمية المصدرة سنوياً من هذه المادة الأخيرة عن طريق البحر بـ 225 طناً في أواسط القرن 17م.<sup>77</sup>

حقيقة، إنّ الحديث عن ميكانيزمات تجارة الرقيق في منطقة إفريقيا الغربية يطرح إشكالات عديدة، لنّ نتمكن هنا من حل رموزها وتطورها التاريخي، لما يتطلبه الموضوع من تمحص دقيق ودراسة متأنية لمختلف جوانبه الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية. وعلماً منا بأهمية الموضوع، ارتأينا في السابق إعطاء فكرة عن دور الرقيق في الحياة الاقتصادية والسياسية في إفريقيا الغربية، وتبقى الإشارة هنا، إلى ظاهرة الفوضى السياسية التي شهدتها مختلف الممالك السنغامبية، لتلبية حاجيات الأرستقراطيات التقليدية من جهة، ولتغطية النقص الحاصل في اليد العاملة بالنسبة للبرتغاليين في العالم الجديد من جهة أخرى.

وهكذا، توافقت مصالح الأرستقراطيات مع رغبة البرتغاليين في استنزاف خيرات المنطقة، وظلت الوضعية على ما كانت عليه طيلة القرنين 15 و 16م، حيث اعتبرت فيها إفريقيا الغربية أول مصدر للعبيد، قبل أن تتراجع لصالح خليج غينيا الذي أصبح في نهاية القرن 17م المصدر الأساسي له. وبحسب إحصائيات فيليب كرتين (Ph. Curtin)، فإنّ السنغامبيا والتي توجد في منتصف الطريق بين أوروبا وأمريكا، قد مثلت 50% من مجموع صادرات العبيد بين عامي 1526 و 1550م، والمعدل السنوي لصادرات الأنهار الجنوبية ما يقارب 5000 عبد ما بين عامي 1562 و

<sup>75</sup> - روفسك: هو مركز تجاري سينغالي بالساحل الأطلسي، يقع شرقي العاصمة دكار، ويُعد الآن ميناءً لتصدير الفستق، وقد تصارع كل من الفرنسيين والهولنديين والإنكليز على هذا المركز، حتى خلص الأمر للفرنسيين.

<sup>76</sup> - La Sénégambie du XVe au XIXe siècle, p. 73.

<sup>77</sup> - Curtin (P.h.), Economic change in Precolonial Africa, op.cit, p. 228.

1640م.<sup>78</sup> ورغم أن هذه الأرقام تبقى نسبية، إلا أن لها دلالة قوية إذا ما ربطناها بإطارها الزمني؛ إذ أثرت لا محال في اختلال الوضع الديموغرافي، مما خلق وضعية سياسية واجتماعية صعبة للغاية.<sup>79</sup>

وفضلاً عن تراجع التجارة الصحراوية في الفترة البرتغالية لصالح التجارة الأطلسية، فإن البرتغاليين خلقوا حركية تجارية بين مختلف المناطق في إفريقيا الغربية؛ فعلى سبيل المثال، كانت المراكب التجارية البرتغالية تجلب مادة الكولا من سيراليون لتبيعها في بورتيدال (Portugal) مقابل الأقمشة القطنية، كما كانت تحصل على الأثواب من الرأس الأخضر مقابل العاج، أما عبيد ريوكاشو فقد كانوا يحصلون عليهم مقايضة بهذه السلع.

وينبغي التنبيه إلى أن ذهب إفريقيا الغربية سرعان ما فقد جاذبيته بالنسبة للتجار البرتغاليين لصالح تجارة الرقيق، وفضة مناطق النفوذ الإسباني في العالم الجديد (وخاصة البيرو)، التي تغلغل فيها أولئك التجار مستغلين عملية توحيد العرشين الإسباني والبرتغالي في الفترة ما بين 1580-1640م، ومحققين أرباحاً خيالية تراوحت ما بين 100% حسب تقديرات فرنان بروديل (F. Braudel).<sup>80</sup>

غير أنه من المسلم به أن تدخل البرتغاليين في تجارة إفريقيا الغربية خلال القرن 16م، قد أفسح المجال لمواد وأساليب جديدة أثرت على اقتصاديات مجتمعات المناطق الساحلية وساهم في الإخلال بتوازناتها جراء الرغبة الجامحة في تحقيق الربح، وتوفير المواد الكمالية الجديدة التي حملت على بيع الكثير من الأفارقة كرقيق. كما أدى - بطبيعة الحال - إلى تغيرات عميقة، وعلى وجه الخصوص، إعادة صياغة الخارطة السياسية لمنطقة إفريقيا الغربية اعتباراً من منتصف القرن 16م.<sup>81</sup>

<sup>78</sup>- Curtin (Ph.), *Economic change in Precolonial Africa*, op.cit, p.202.

<sup>79</sup>- إن تجارة الرقيق التي مارسها الأوروبيون على امتداد القرون الثلاثة (16 و 17 و 18 م) من أهم الأحداث التي شهدتها القارة الإفريقية على مر التاريخ، ويمكن وصفها بآبادة جماعية وجريمة ضد الإنسانية ذات أغراض متعددة؛ لأنها استهدفت الإنسان الإفريقي في ذاته ولونه ووجدانه ونفسه وعقله وحياته ومصيره ومستقبله. ولعل عملية الاسترقاق لا تكمن خطورتها فقط في أنها أصابت جسم الإنسان الإفريقي وكيانه المادي وإنما أيضاً في أنها أصابت عقل الإنسان الإفريقي وكيانه المعنوي.

- فرناند بروديل، 1993، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، ج. 2، ترجمة، مصطفى ماهر، باريس، ص. 135. <sup>80</sup>

<sup>81</sup> - La SÉNÉGAMBIE du XVe au XIXe siècle, p. 71.

## إعادة صياغة الخارطة السياسية لممالك إفريقيا الغربية:

إنّ المتأمل في الخارطة السياسية والاجتماعية لمنطقة إفريقيا الغربية في هذه المرحلة، سيقف جلياً على التحولات الكبرى التي عرفها المجتمع، بسبب ارتباطه بالتجارة الأطلسية، وما حملته هذه التجارة في طياتها من مفاهيم جديدة لم يكن المجتمع الإفريقي قد وصل بعد إلى كسب تقنياتها ولا مؤهلاً للتعامل معها.

وقد أفرزت تجارة الرقيق ظاهرة تخصص بعض القبائل في قنص الرجال، وكانت قبيلة الماندينغ أبرزها، مما دفع بعض القبائل إلى الهجرة إلى أماكن آمنة، وخاصة الغابوية منها، حتى لا تطالها أيدي القناصة. وقد أدى ذلك إلى اختلال الفسيفساء السياسي والاجتماعي الذي عرفته المنطقة عبر تاريخها.<sup>82</sup>

بناء على ذلك، أدت هذه الوضعية إلى محاولة الأرسقراطيات التقليدية تقوية مركزها الاجتماعي والسياسي، بزرع الرعب سواء في وسط رعاياها أو خارج نطاق سيطرتها، لتبدأ بذلك مرحلة العنف السياسي، الذي كان من نتائجه تصدع النظم السياسية والاجتماعية التي طالما حافظت عليه منطقة إفريقيا الغربية.

وإنّ اطلالة سريعة على الوضع السياسي كقبيلة أن توضح لنا ذلك التصدع الذي بدأت تعرفه المنطقة ابتداءً من القرن 16م؛ فمن جهة الجنوب، نسجل حضور مملكة نكابور والتي أصبحت أهم قوة بعد انهيار مملكة مالي، لتصل في أوج ازدهارها إلى ضم جميع الممالك التي كانت توجد على ضفتي نهر غامبيا.<sup>83</sup>

أما إمبراطورية جولف، فقد تفككت هي الأخرى في منتصف القرن 16م إلى ممالك مستقلة من أهمها: كايور، وباول، و والو، بقيادة زعماء محليين دشنوا عهداً جديداً من العنف سواء في علاقاتهم مع الممالك السنغامبية أو في علاقاتهم الاجتماعية والسياسية في داخل كل مملكة، لتصبح بذلك هذه المنطقة كفوّهة بركان وصل لهيبها إلى المناطق المجاورة، فدخلت هي الأخرى في الصراع الدائر حول السلطة.

<sup>82</sup> - La Sénégambie du XVe au XIXe siècle, p. 78.

<sup>83</sup> - Ibidem, p.80.

ونقصد هنا منطقة فوتاتور، التي بلغت أوج توسعها في ظل سلطة أسرة الدنيانكي (Denyanke) في بداية القرن 17م وذلك بقيادة صامبا لامو (Samba Lamu)، لتصبح بذلك المتحكم في تجارة أعالي نهر السنغال نحو الساحل الأطلسي. علماً بأن أهمية هذه المنطقة ازدادت بدخول البيضان حلبة الصراع التجاري، وتمثل ذلك في محاولتهم السيطرة على الضفة اليسرى لنهر السنغال، التي كانت تمثل في تلك الفترة مجالاً حيويًا ومتنفساً اقتصادياً، نظراً لما اكتسبته المنطقة من أهمية في علاقتها مع التجارة الأطلسية.<sup>84</sup>

خلاصة القول، لم تنحصر هذه الوضعية خلال الفترة الممتدة بين القرنين 15 و 17م بل ازدادت حدة بدخول الصراع حول منطقة إفريقيا الغربية من طرف قوتين هما: إنكلترا وفرنسا اللتين قلبتا ميزان القوى في المنطقة لصالحهما، إلى أن تمكنت فرنسا في النهاية من الانفراد بالسنغامبيا ابتداءً من منتصف القرن 19.

### ثانياً - الأطماع الهولندية في المنطقة:

لقد أصبحت هولندا خلال القرن 17م قوة ذات ثقل كبير على مستوى الاقتصاد والتجارة الخارجية، وذلك بفضل أسطولها البحري، الذي بلغ أوج ازدهاره في سبعينيات القرن 17م؛ إذ كان يملك أجود المعدات والأسلحة، كما كان يمتاز بأجوره الزهيدة، مما نتج عن ذلك هيمنتها على الاقتصاد الأوروبي بما في ذلك عالم ما وراء البحار.<sup>85</sup> ولم تكن البرتغال تلك الإمبراطورية الهرمة بإمكانها أن تقف في وجه القوة الهولندية الفتية، التي استغلت أيضاً انشغال البرتغاليين في انتزاع استقلالهم من الإسبان، فأقصوهم من جزيرة "أركين" واحتلوها في عام 1633م، وحصنوا القلعة وأصلحوها من الداخل، قبل أن تعلن إسبانيا تنازلها للهولنديين عن المطالب البرتغالية في الساحل السنغالي عام 1638م. وقد عمل الهولنديون على تطوير تجارة العلك، وربطتهم علاقات جيدة مع الزعامات المحلية، حتى وصل الأمر إلى وجود وسطاء لهم داخل البلاد. كما

<sup>84</sup> - محمد السعد ولد المختار، إمارة الترابزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703-1860م، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ج. 1، ص. 377.

<sup>85</sup> - بروديل، ص. 231. قُذِرَتْ وحدات ذلك الأسطول القادر على السفر عبر مسافات بعيدة عام 1669م بـ 6.000 سفينة في الأقاليم المتحدة كلها فضلاً عن السفن الصغيرة التي لا تستطيع القيام برحلات طويلة، في حين كان عدد الملاحين 48.000 ملاح. يضاف إلى ذلك جودة السفن، وقلّة تكاليف صناعتها، ومحدودية تكاليف طاقمها.

تمكنوا أيضا من الاستيلاء على مينائي روفيسك (Rufisque) وگوري (Gorée)، هذا الأخير الذي اعتبره كثير من المؤرخين، اللبنة الأولى في ترسيخ الوجود الأوروبي في السنغال، ومنطقة إفريقيا الغربية على وجه العموم.<sup>86</sup>

ومع ظهور الفرنسيين والإنكليز كقوتين في عالم ما وراء البحار خلال النصف الثاني من القرن 17م، دخلتا في حروب مع القوى الهولندية للسيطرة على سواحل إفريقيا الغربية. وقد تمكن الإنكليز من انتزاع قلعة "أركين" من الهولنديين ضمن ما انتزعه من مراكز تجارية في السنغال عام 1665م، بحسب ما يذكر ولد السعد نقلا عن ((بيير لابات))، إلا أنه يُخطأ صحة هذا الأمر استنادا إلى تحريات ((تيودور مونو)) الذي يرى أن فترة الاحتلال الهولندي الأولى لأركين لم تنتهي إلا في عام 1678م على يد الفرنسيين.<sup>87</sup> وإذا كان الهولنديون لم يخسروا في صراعهم ضد الإنكليز، إلا أنه مع ظهور الفرنسيين، سيظهر رجحان الكفة لصالح فرنسا؛ فقد تمكنت الأخيرة من الاستيلاء على "أركين" بموجب اتفاقية نيميك (Nimegue).<sup>88</sup>

وفي هذا الإطار، يذكر ولد السعد استيلاء "ديكاس" القائد الفرنسي على القلعة في 28 أغسطس عام 1678م، وكيفية أخذه لبعض الأسر البيضانية أسرى، لإرسالهم للعالم الجديد بصفتهم أرقاء، ونخوة تلك الأسر التي أدت بهم إلى إقامة ثورة في السفينة انتهت بقتل بعضهم برصاص طاقم السفينة ورمي الآخرين بأنفسهم في البحر، وما أدى بذلك إلى بغض السكان المحليين للفرنسيين وزيادة تعلقهم بالهولنديين.<sup>89</sup>

ونتيجة للحضور الفرنسي الهش في السنغال خلال تلك الفترة، لم يمر عقد من الزمن حتى تمكن الهولنديون من الرجوع إلى مواقعهم السابقة؛ وذلك عام 1688م عن طريق استرجاعهم "أركين" وميناء بورتانديك (Portandick).<sup>90</sup> وخلال العقد الثاني من القرن 18م عاد الصراع من جديد إلى الواجهة بين الفرنسيين والهولنديين، وقد اشتد

<sup>86</sup> -Deschamps (H.), 1976, L'Afrique noire précoloniale, de Madagascar et des Archipels, Presses universitaires de France, p. 48.

<sup>87</sup> - محمد المختار ولد السعد، 2002، إمارة الترابزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703-1860م، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ج.1، ص. 391.

<sup>88</sup> - نيميك: مدينة هولندية وقعت فيها سلسلة من الاتفاقيات بين الفرنسيين وعدد من الدول الأوروبية بين عامي 1678 - 1679، تكرر فيها التفوق الفرنسي في عهد لويس الرابع عشر.

<sup>89</sup> - ولد السعد، المرجع السابق، ج. 1، ص. 392.

<sup>90</sup> - بورتانديك: مرسى ومحطة تجارية للتبادل، أنشأها الهولنديون في الربع الأخير من القرن 17م، وذلك بعد طردهم من ميناء أركين على يد الفرنسيين، وأطلقوا عليه ميناء هد، وظلوا يتبادلون فيه إلى الربع الأول من القرن 18م، وقد ارتبط الميناء أكثر بالوجود الإنكليزي على السواحل.

هذا الصراع، خاصة خلال الفترة المتراوحة ما بين عامي 1720-1727، حيث أرسل خلالها الفرنسيون خمس حملات حربية إلى جزيرة أركين، محتجين بأعذار واهية، منها تفكير سلطان المغرب المولى إسماعيل (1672-1727م) بضم أركين لجعله مركزاً لاستراحة بحريته. وبعد حروب دامية، أحست فرنسا بميل ورغبة الهولنديين في السلم، فجلس الاثنان للتفاوض بشأن المشاكل العالقة بينهما، وانتهى الأمر بتوقيع الطرفين على معاهدة ((الاهاي)) في 13 يناير 1727م، والتي من أهم بنودها: ((تنازل الهولنديين بشكل نهائي عن المطالبة بالسيادة على جزيرة أركين، وانفراد الفرنسيين بالسيادة على سواحل المنطقة، وتخلى الفرنسيين عن المطالبة بتعويضات الحرب، والأضرار التي لحقت بهم، ودفعهم في المقابل تعويضات للطرف الهولندي)).<sup>91</sup>

### ثالثاً - الأطماع الإنجليزية:

إذا كان القرن 17م هو قرن هولندا وتوسعها في إفريقيا الغربية ومنطقة السنغال على وجه الخصوص، فإن القرنين 18 و19 يمكن أن نعتبرهما فترة التوسع الإنجليزي، حيث كانت إفريقيا مجالاً حيويًا له، فكثيراً ما نافست انجلترا فرنسا في السنغال، فاستولت على جوري وسان لويس عام 1758، وظل الوجود البريطاني حتى عام 1783، ومع قيام الثورة الفرنسية دمرت السفن البريطانية المنشآت الفرنسية، إلا أن فرنسا لم تقف مكتوفة الأيدي، فسرعان ما استعادت حضورها في المنطقة عام 1817، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة في تاريخ الاستعمار الفرنسي في السنغال.<sup>92</sup>

### رابعاً - الأطماع الفرنسية في السنغامبيا:

لا يمكن فهم الوضع العام بشكل صحيح في منطقة السنغامبيا عامة، وبلاد فوتاتور خاصة، خلال النصف الأول من القرن 19م؛ أي عشية انطلاق الشيخ الحاج عمر شيخ الطريقة التيجانية في حركته الإصلاحية الجهادية، دون معرفة الأدوار السياسية والاقتصادية والعسكرية التي لعبتها فرنسا، وأثرت من خلالها في مجريات الأحداث في هذه البلدان، منذ القرن 17م، مع ما يرتبط بذلك من الصراعات التي

<sup>91</sup>- Gautier (E. F), 1949, L'Afrique Occidentale Française, Paris, p. 45.

<sup>92</sup> محمد عبدالله ولد المصطفى، " التدخل الفرنسي في موريتانيا (1854- 1905) اكزافي كوبلاني نموذجاً"، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، الدار البيضاء، جامعة الحسن الثاني، بنمسك، (2008-2009م) مرقونة، ص. 21 وما بعد.

خاضتها مع دول أوروبية أخرى، مثل البرتغال وهولندا وانجلترا في أفق بسط النفوذ على أقاليم إفريقيا الغربية الواعدة.<sup>93</sup>

ولمعالجة هذا الوضع، يتوجب علينا التطرق لعلاقات فرنسا بكنفدرالية فوتاتور من بدايتها حتى النصف الثاني من القرن 19، وهو التاريخ الذي سيصبح معه الحاج عمر شريكاً فاعلاً مع الفرنسيين في صنع الأحداث التاريخية بالمنطقة.

رأينا مما سبق، أن الراية الفرنسية لم تُرفع في مياه نهر السنغال إلا في وقت متأخر مقارنة مع بعض الدول الأوروبية؛ مثل البرتغال وهولندا وانكلترا، التي كانت سباقة إلى سواحل غرب إفريقيا منذ القرن 16م. لكن عندما نجحت فرنسا في إنشاء نواة في سانت لويس (Saint Louis) عام 1659م عملت على إقفال مدخل نهر السنغال، ومنع سفن غيرها من الدول من الاستفادة من هذا الموقع، والإطلاع على كنوز المنطقة، وأسرارها. وحققت بذلك احتكاراً تجارياً للشركات ذات الامتياز التي ستتعاقب على تنفيذ مشاريعها بالمنطقة حتى عام 1763م.<sup>94</sup>

حينما استردت فرنسا موقعها في سانت لويس وغوري بعد مؤتمر فيينا، وجدت نفسها مندفعة لتأكيد حضورها، وتوسيع نفوذها بالمنطقة؛ وراهنبت بهذا الشأن، على البعثات الاستكشافية لأعالي نهر السنغال سنتي 1817 – 1818م، وفي نفس السياق حاولت استغلال المعاهدات التي وقعتها في السابق مع عدد من زعماء ممالك أعالي نهر السنغال: بوندو، وخاسو، وكاديكا، وبامبوك. وأنيط بهذا المخطط، إنشاء مراكز وحصون داخلية على طول نهر السنغال ورافده الغاليمي؛ بهدف الوصول إلى مناجم الذهب في البامبوك، وكذلك ربط مستعمراتها تجارياً بالحوض الأوسط لنهر النيجر؛ حيث توجد مدينة تنبكت التي ما تزال تمارس تأثيرها السحري على الذهنية الأوروبية.<sup>95</sup> وشكلت الشركات التجارية الفرنسية – المتمتعة بكل الامتيازات الاحتكارية – رأس الحربة في هذا الاختراق للجسم السنغالي. نذكر منها على الخصوص الشركة التجارية لغالم، التي عملت على توسيع مجال نفوذها بمساعدة إدارة سانت لويس. وبالنظر إلى الضغط الإنكليزي لمنع تجارة الرقيق، فقد اضرت فرنسا لانتهاج سياسة

<sup>93</sup> Marcel, Olivier, Le Sénégal, 1er édit. Libraire Emille Larose, Paris 1909, p. 21.

<sup>94</sup> – عبدالله عيسى، 2017، الاستعمار الفرنسي للسنغال، القاهرة: المكتب العربي للمعارف، ص. 49.

<sup>95</sup> أحمد الشكري، «جهد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال»، المرجع السابق، ص. 56.

الاستعمار الزراعي؛ وبذلت تصدرت مادتي الصمغ والبقول السوداني، قائمة المواد المتداولة في تجارتها الأطلسية. وعلى المستوى السياسي، قررت فرنسا التخلص التدريجي للإتاوات الممنوحة للزعامات المحلية سواء منها البيضانية أو السنغالية، وكانت تمهد بهذه الخطوة لإلغاء جميع أنواع الإتاوات في مرحلة سابقة.<sup>96</sup>

وبموازاة مع ذلك، وباعتبار تذبذب السياسة الفرنسية في المنطقة؛ تم إنشاء مديرية للشؤون الخارجية عام 1845م، على غرار تلك التي أنشئت بالجزائر، ومنح لهذا الجهاز الصلاحيات الكاملة للسهر على السياسة الفرنسية بالسنغال.

وتترجم هذه الترتيبات، استعداد فرنسا لبسط نفوذها في مناطق الساحل وأعلى نهر السنغال من خلال مشروع استيطاني؛ الشيء الذي يؤكد رغبتها في تجاوز مرحلة التردد السياسي إلى مرحلة الاستعمار المباشر. على أن ثورة باريس لعام 1848م، عرقلت لبعض الوقت تنفيذ هذا المخطط، كما أن تعيين الوالي الجديد بروتي (1850-1854م) لم يساعد في حل المشكلة السنغالية؛ وزاد من تأزم الوضع، تهريب الخزينة الفرنسية من تمويل المخطط الاستعماري الجديد. وصادفت هذه الصعوبات بروز شخصية استعمارية محنكة، ونقصد بها العقيد فيديرب، الذي تم تعيينه على رأس الإدارة الاستعمارية في سانت لويس كحاكم عسكري لها عام 1854م. ولم تكد تمضي سنة واحدة على تعيينه، حتى وجدناه يخضع مملكة والو للسيادة الفرنسية؛ معلنا بذلك بداية مرحلة جديدة من تاريخ الاستعمار الفرنسي للسنغال.<sup>97</sup>

وقبل حوالي عشر سنوات من تعيين الجنرال فيديرب، كان زعيم التيجانية الحاج عمر الفتوي، يقود دعوة إصلاحية، كان لها شأن كبير في منطقة السنغال، والنواحي المجاورة لها.

<sup>96</sup> — نلقت الانتباه ان هذه الإتاوات أو الضرائب التي كانت تقدمها الإدارة الفرنسية، كانت تمثل بالنسبة للزعامات المحلية رمزا لسيادتها.  
<sup>97</sup> Ca Da Mosto (A. De.), Relation des voyages à la cote occidentale d'Afrique, op.cit, p. 317.

### (الفصل الثالث)

## الأدوار السياسية للطريقة التيجانية في إفريقيا الغربية خلال القرن 19م

لقد أدت الطريقة التيجانية متمثلة بزعيمها الروحي الحاج عمر الفوتي أدواراً مهمة يشهد لها التاريخ في المجال السياسي، من خلال مقاومة الوافد الأجنبي؛ الذي عمل جاهداً وباستعمال جميع الوسائل، الشرعية منها والغير شرعية لتكريس نفوذه في منطقة إفريقيا الغربية، لاستغلال خيراتها، ونهب ثرواتها. فأدرك الزعيم التيجاني هذه الخطورة التي باتت تهدد المنطقة ككل، فحاول جاهداً - رغم ضعف الإمكانيات - التصدي للأطماع الفرنسية من خلال قيام سلسلة من المواجهات العسكرية مع الفرنسيين؛ لكن مع اختلاف الفوارق في القوى والعتاد جعلت الكفة تميل للفرنسيين، لكن هذه الحركة الجهادية كان لها دور بارز في توحيد المنطقة سياسياً، كما أنها استطاعت من تعميق تجربة الإسلام القاعدي، ومحاربة القوى الوثنية، هذا فضلاً عن دورها البالغ الأهمية في تهديد المصالح الفرنسية بالمنطقة.

### (المبحث الأول)

#### جهاد التيجانية ضد الإمارات الوثنية

قبل بداية الحركة الإصلاحية - الجهادية للحاج عمر، كانت البلاد تعيش حالة من التصدع السياسي والظلم الاجتماعي الشيء الذي وفر تربة خصبة لترعرع ونمو الحركة العمرية خاصة بين الفئات الدنيا، التي كانت تتطلع لمنقذ يصلح حالها ويعيد للإسلام والمسلمين مكانتهما.

بدأت الحركة العمرية نشاطها، أولاً ضد الممالك الوثنية، وثانياً ضد الاستعمار الفرنسي. ونحن سنقوم في هذا المبحث بعرض المرحلة الأولى من جهاد الحاج عمر.

#### أولاً- الحرب ضد مملكة تامبا (Tamba)<sup>98</sup>:

<sup>98</sup> - شكلت هذه المملكة المحطة الثانية والحاسمة بعد رجوع الحاج عمر من المشرق . تقع هذه المملكة المالينكية على الحدود الشرقية لفوتا جالون بين نهري البافنيك Bafing والتينكيسو Tinkisso . يرجع تاريخها إلى نهاية الربع الأول من القرن 19 ونظراً لأهمية موقعها المتميز أصبحت تراقب مناجم ذهب بوري وتتحكم بالطرق التجارية النشطة بفعل إشرافها على مختلف الطرق القافلية المؤدية إلى السودان النيجيري ، والبلدان المطلة على الساحل والآتية منها في طريقها إلى الموانئ الأطلسية، موجهة بذلك ضربة موجعة لفوتا جلون على وجه الخصوص، التي كانت تستفيد من هذا المجال التي كان ملكاً لها بالأمس القريب. راجع: أحمد الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19، م.س، ج. 2 ، ص. 502 .

يرجع السبب المباشر لانطلاق عملية الجهاد إلى الأوامر التي صدرت للحاج عمر من يامبا ملك طامبا، بضرورة الوقف عن استيراد الأسلحة التي كان الحاج عمر قد حصل عليها أثناء جولاته بالمنطقة، حيث وصل إلى كل من المستعمرات البريطانية في غامبيا و البرتغالية في غينيا بيساو وتسليمها للملك يامبا.

وهنا تظهر إستراتيجية الحاج عمر في الأزمات حيث استعمل الورقة الدبلوماسية عندما دخل في مفاوضات مع الملك المذكور، أمهله بعض الوقت لوضع آخر الترتيبات لمواجهة كل احتمال. فأرسل الملك (Yamba) وفداً، حيث شرح أفراد هذا الوفد للحاج عمر، الذي استقبلهم باحترام، موضوع قلق ملكهم.

وبدلاً من أن تعود هذه البعثة بالنتائج المرجوة لملك طابا، عادت بما زاد من غضبه، بسبب ما علمه من رفض جل مسى (Diali Moussa) للعودة مع الوفد إلى بلده، بالإضافة إلى تفضيله اعتناق الإسلام على الوثنية. وهنا نستحضر ما قاله جل مسى للوفد: ((قولوا له بأني اخترت المقام مع الحاج عمر عن المقام معه، وإني أسلمت ودخلت دين الله وتركت دين الفجار)).<sup>99</sup>

كان هذا الحدث بمثابة كارثة ما بعدها كارثة، باعتبار أن ما قام به "جل مسى" يعتبر بيعة ومباركة سياسية، ناهيك عن النتائج الإيجابية التي ترتبت عن هذا الحدث لصالح الحاج عمر الذي حج إليه عدد كبير من وثني طامبا لاعتناق الإسلام. وأمام هذا الوضع المؤلم قرر يامبا (Yamba) إعلان الحرب على الحاج عمر، في بداية شهر ستمبر 1852م. فتبع الحاج عمر إستراتيجية مفادها فرض حصار على مدينة طامبا، التي استعصت على المسلمين بسبب ضخامة أسوارها، فكانت النتيجة تحقيق الانتصار الأول.

#### – نتائج الحرب بالنسبة للدولة التيجانية:

1. من الناحية الروحية دخول عدد كبير من سكان طامبا، ومينيان في الإسلام؛ مما ساعد على تضخم جيش الحاج عمر .
2. سيطرة الحاج عمر على منجم بوري، أهم منجم للذهب.

<sup>99</sup> – موسى كمر، 2001، أشهى العلوم وأطيب الخبر، تحقيق أحمد الشكري، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ص. 34 .

3. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار غنائم الحرب النفيسة، فإنه يمكننا تصور مدى الرخاء الذي ينعم به كل من دار في فلك الزاوية التيجانية من عبيد وأحرار ارتموا في أحضان هذه الحركة، بسبب سخطهم على أوضاع بلدهم المزرية. فالعبيد بعد تحريرهم من قبل الشيخ التيجاني ودخولهم في خدمته، تفتحت في وجوههم كباقي زملائهم من الجنود الأحرار فرص الترقى للوصول إلى أعلى المراتب، روحياً وعسكرياً.

4. كان لهذا النصر صداً كبيراً في المناطق المجاورة، مما جعلها تفكر بدخول الدين الحنيف.<sup>100</sup>

بطبيعة الحال، إنَّ هذا العمل لم يكن إلا جزءاً من المشروع المستقبلي الذي يفكر بتحقيقه الحاج عمر وهو تكوين دولة إسلامية مترامية الأطراف. ولكن هذا الأمر لم يكن بالسهل؛ إذ أن الطرف الفرنسي كان على إطلاع بكل ما يجري في المنطقة، إضافة إلى أن هذه الممالك لها باع طويل في الوثنية، وهي على جانب من القوة؟

ثانياً - إخضاع بلدان السنغال الأعلى دون الاصطدام بالقوات الفرنسية:<sup>101</sup>

يرجع أسباب ضم الحاج عمر لهذه الأقاليم إلى مجموعة من الأسباب من أهمها:

- (1) غناها بالمعادن النفيسة.
- (2) طغيان الكفر و الوثنية منها على الإسلام.
- (3) قرب سقوطها في أيدي الفرنسيين.

غير أنه من بين أهم تلك الأسباب، وقوعها في طريقه إلى بلاد كارطا المشتركة ، والتي شكلت موضوع إخضاع سكانها للإسلام أحد أهم أهدافه الجهادية .

- ضم بامبوك:

انطلقت جيوش الحاج عمر إلى بامبوك في 8 يونيو 1854م، مروراً بطامبا، وفي يوم 14 من نفس الشهر، عبر الحاج عمر مع جيشه نهر البافنيك، بنية إخضاع بلدة

<sup>100</sup> - Barry, (B) , La Sénégambie du XVe au XIXe siècle, op.cit, p. 36.

<sup>101</sup> - من هذه البلدان : خاسو ، جديماخا ، Gidimak ، بامبوك ، Bambouk ، والبونديو Boundu .

كونجان Kunjan، بسبب وقوعها في مفترق الطرق التجارية التي تربط السنغال الأعلى وكارتا بالمحيط الأطلسي، وهو موقع إستراتيجي مهم أيضاً بمراقبة كل بلدان الماندينك في الإقليم، علاوة على تحكمها في بامبوك برمتها.

ورغم الصعوبات التي لاقاها هذا الجيش بالنظر إلى الطبيعة المتضرسة المسالك، وتعرضه لبعض المناوشات من حين لآخر، فقد تمكن من تحقيق هدفه الأول بالاستيلاء على كونجان واستسلام حاكمها، ومبايعته للشيخ عمر في شهر غشت 1854. غير أن تمهيد ما تبقى من أراضي بامبوك في اتجاه الشمال لم يكن بنفس السهولة، فمن بين الأقاليم الكبرى التي مر بها بعد كونجان، جالافرو، وجوكيبا، وسيرمانا، وكينيبيبا، وفارباننا.<sup>102</sup>

وعلى اعتبار فارباننا أقوى إمارة وثنية بالإقليم، أخذ الحاج عمر يتهيأ لغزوها، وفي نفس الوقت سعى لاحتواء الموقف دبلوماسياً، فتمكن في نهاية المطاف من دخولها سلمياً في أكتوبر 1854م؛ بعد أن استمال زعيمها وكبار أعيانها<sup>103</sup>.

بعد هذا النجاح عاد الحاج عمر مرة أخرى ليلعب بالورقة الدبلوماسية تجاه عدد من الإمارات، خاصة الإسلامية منها، فجاءته طائعة ومبايعة.<sup>104</sup> في حين استخدم القوة العسكرية ضد الزعامات الوثنية التي رفضت دعوته، مثل باركا زعيم مكسانا، الذي انهزم في حرب خاطفة، دخلت على إثرها قوات الشيخ التيجاني بلده. وبذلك أصبح الحاج عمر يبسط نفوذه على جل مناطق أعالي النهر.<sup>105</sup>

## - إخضاع كارطا:

بدأ الحاج عمر زحفه على كارطا مع بداية 1855م، بعد أن حصل على دعم الممالك المجاورة، بجيش قدر عدده في المصادر الفرنسية قرابة 15000 مقاتل.<sup>106</sup> عبر الضفة الشمالية للنهر لشن أول هجوم ضد مساسي (Massassi) حاكم كارطا. ورغم أن المعبر الرئيسي للنهر كان محروساً من قبل القوات الوثنية، فإن الجيش الإسلامي لجأ

<sup>102</sup> - الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب و السودان الغربي خلال القرن 19، م.س، ج 3، ص. 93-94.

<sup>103</sup> Mage, (E).1980, Voyage au Soudan occidental 1863-1866, Paris: Karthala, p. 127.

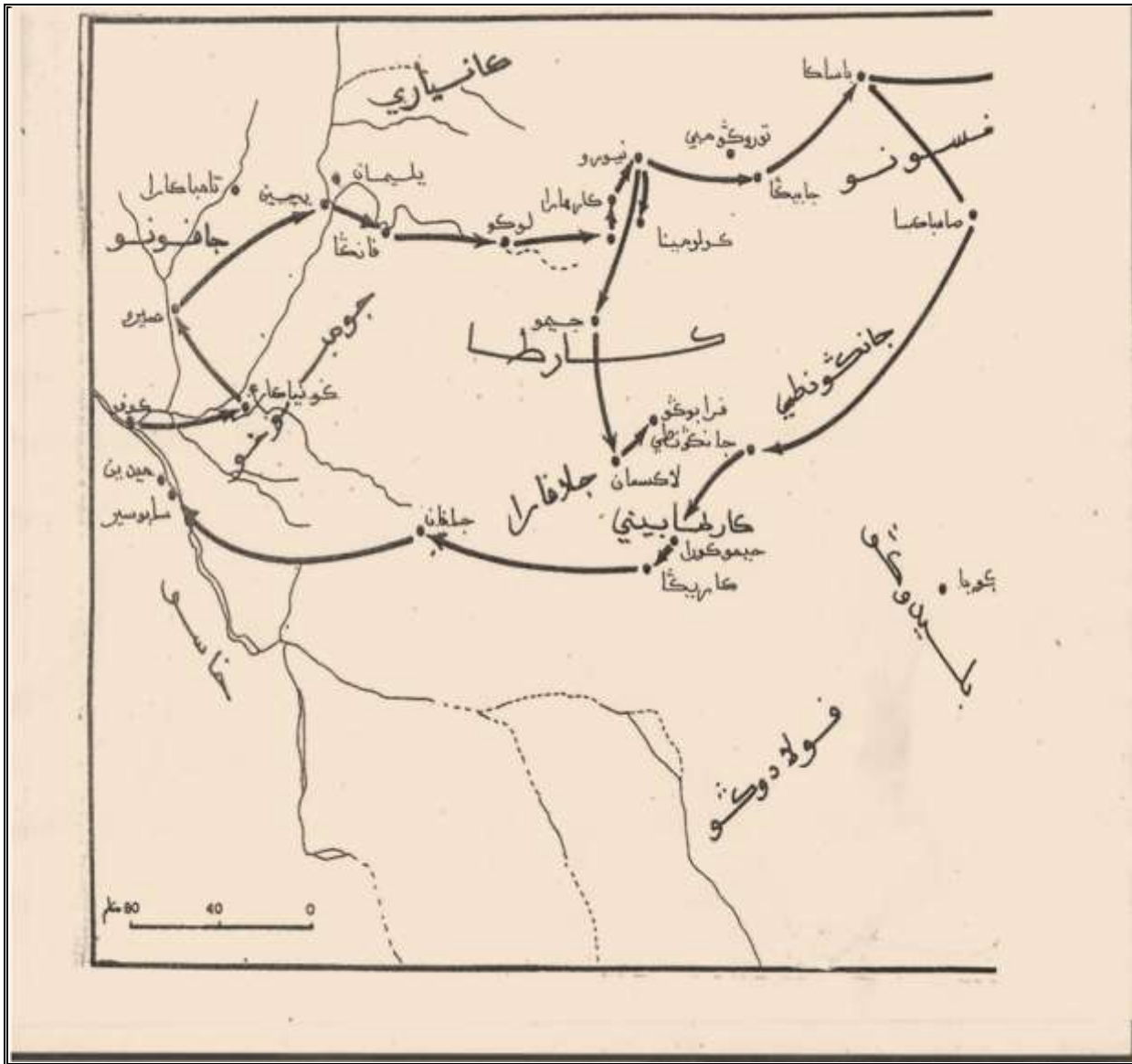
<sup>104</sup> - نذكر منها على الخصوص البوندو والخاصو والكوي والكاميرا.

<sup>105</sup> - أحمد الشكري، "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، م.س، ص. 60.

<sup>106</sup> Desportes (V), 2001, Comprendre la guerre ; préf. du général d'armée Yves Crene, Paris : Economica, p. 133.

إلى الخدعة باستعماله معبر آخر إلى الجنوب من بونكور (Bunguru) مما مكنه من الالتفاف حول عدوه والدخول معه في معارك متقطعة.

خلاصة القول، قادت هذه المعارك في نهاية الأمر إلى انتصار الحاج عمر، ودخول العاصمة نيورو (Niuro) في الفاتح من نوفمبر 1855م، فأخذ يرسل كل أقاليم إفريقيا الغربية الخاضعة له والغير خاضعة، ليخبرهم بما جد في أمره، وبالفتوحات التي أنجزها تمهيداً لطلب المدد والسند من رجال ومال. فبذلك استطاع تفتيت بني وهياكل النظام الوثني البائد، فتزايد أتباعه، مما حفزه على متابعة ما بدأه من مسيرته الجهادية. فكانت المرحلة المقبلة وهي إخضاع سيكو (Ségou)، فكيف تم ذلك ؟



عملیات الحاج عمر الجهادية ضد إمارة كارطا الوثنية

### ثالثاً- إخضاع سيكو (ségo):<sup>107</sup>

كان الحاج عمر يعرف أنّ مهمة إخضاع سيكو ليست سهلة، وتحيط بها الكثير من الأخطار منها: بعد المسافة الفاصلة بين نيورو Nioro عاصمة كارطا وبلاد سيكو ، وكثرة الأدغال بالأراضي التي لا بد من المرور منها، بالإضافة إلى عداة سيكو للإسلام.

رغم كل هذه التحديات قرر الحاج عمر الزحف في اتجاه سيكو في 12 سبتمبر 1859م وكله عزم في إلحاق هذه البلاد بدار الإسلام. وفي 20 نوفمبر 1859م ، أبدت قلعة ميركوييا ( Merkoia ) مقاومة ضارية لهذا الزحف الإسلامي<sup>108</sup>، إلى أن سقطت هذه القلعة في 15 سبتمبر 1860 بأيدي المجاهدين بسبب عنصر المفاجأة الذي أحدثه المدفعان<sup>109</sup>، بالإضافة إلى عوامل أخرى ساعدت الحاج عمر في تحقيق هذا النصر ومنها دخول ملك سيكو (طوروكورو ماري) Torocoromari في الإسلام سرا.

بعد هذا الانتصار، لم تعد تبعد سيكو إلا بحوالي 47 كلم ، فدخلها في يوم 9 مارس 1861، غير أنه في الوقت الذي بدأت فيه رياح النصر الشامل تهب على شيخنا في سيكو وصلته أخبار غير سارة تفيد بحدوث تقارب بين حكام مملكة سيكو الوثنية وحكام إمارة ماسينا الإسلامية<sup>110</sup>، المعروفين بعدائهم لبعضهم البعض على مر الزمن وإلى الأمس القريب، والتي ستفضي في النهاية إلى تدبير عملية اغتياله<sup>111</sup>.

### – إستراتيجية الحاج عمر في جهاده ضد الإمارات الوثنية:

من خلال تتبعنا لأحداث الجهاد العمري ضد الممالك الوثنية، نرى أنّ الحاج عمر اتبع مجموعة من الإستراتيجيات والخطط ، ومنها أنه كان حذراً من أعدائه، ولا يطمئن بمجرد الانتصار على الخصم، بل كان يلاحقه حتى يقضي عليه، علماً بأنّ المنهزم يفكر دائماً في الانتقام، ولا يؤمن شره ما دام حياً. وكان يلجأ إلى إثارة روح التنافس بين جنوده. ومن هنا كان تقسيمهم إلى كتائب، وهذا مقتبس من الإستراتيجية

<sup>107</sup> - سيكو : تقع هذه المملكة الوثنية على ضفتي نهر النيجر الأوسط إلى الشمال من بامako Bamako العاصمة الحالية لمالي. ويرجع تاريخ تأسيسها إلى حوالي منتصف القرن 18 .

<sup>108</sup> - قلعة ميركوييا: هي قلعة إقليم بيلديكو Bélédégu المحصنة ، والتابع من الناحية الشكلية لسيكو .

<sup>109</sup> - هما المدفعان اللذان كانوا قد استولوا عليهما جيوش الحاج عمر من الفرنسيين في معركة نجوم Njum سنة 1858.

<sup>110</sup> - إمارة ماسينا : تقع هذه الإمارة على ضفاف دلتا النيجر الأوسط إلى الشمال الشرقي من سيكو .

<sup>111</sup> - أحمد الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي، م،س، ج. 3، ص. 150.

النبوية التي كان يقصد بها حمل الفرق المكونة للجيش على التفاني في إبراز شجاعته وتفوقها في ذلك على غيرها. وكان حرصه على ضمان تلاؤم جيشه بحمله على مشاوره أصحابه في الأمور الهامة ويدل على ذلك قصة ((جل مسى)) ، التي يقول الشيخ موسى كمرأ بشأنها : (( فجمع الشيخ أصحابه وشاورهم في حال رجوع جل مسى إلى الكفار أم بقاءه في الإسلام . فاختلف رأيهم فقال بعضهم: علينا رده لأجل أنا لا طاقة لنا على قتاله لقله فنتنا. وقال بعضهم: ليس لنا رد المسلم إلى الكفار، ولو جاء ذلك الأمر على نفوسنا و أموالنا وذرياتنا فقال للرسول: سمعتم أقوال الجماعة إذا ذهبتم إلى " كعب " فقولوا له بانا لا طاقة لنا برجوع جل مسى إليه)).<sup>112</sup>

خاتمة القول، نجد أن الحاج عمر كان اتبع إستراتيجيات مختلفة، وذلك بحسب الظرفية المتاحة له، وبحسب الإمكانيات المتوفرة من فترة إلى أخرى. وفي هذه المرحلة نجد أن أغلب مراحل جهاده كان هدفه مُنصباً لنشر الدين الإسلامي، ولم يكن له حد إلا بموته أو بإخضاع كل بلدان إفريقيا الغربية للإسلام، وإلى هذه المرحلة كانت علاقاته مع الإدارة الفرنسية ذات طابع سلمي، ولكنها كانت تراقب بحذر تحركاته، والانتصارات التي كان يحققها، وترى في ذلك خطراً يهدد مصالحها الترابية في المنطقة مما جعل الحاج عمر يغير من إستراتيجيته مع الفرنسيين من سلمية إلى عسكرية، وهذا ما سنتوقف عنده في الفقرة التالية.

<sup>112</sup> - موسى كمرأ، أشهى العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر، م،س، ص. 62.

## المبحث الثاني

### جهاد الحاج عمر ضد الفرنسيين

لقد عرفت العلاقات بين الفرنسيين والحركة الجهادية مجموعة من التطورات والأحداث، اتسمت في البداية بالطابع السلمي، وتجنب الاصطدام مع الفرنسيين. وتبين لنا بعض من المصادر والدراسات ، أن الحاج عمر كان يرغب في نسج علاقات صداقة مع الفرنسيين، وأنه التقى مرتين بالسلطات الفرنسية، وبممثلي تجار سان لويس فكانت الأولى في بودور (Podor) وحلوار (Halwar)، في بديّة 1847م، والثانية في صيف 1847م في مدينة باكل.<sup>113</sup>

ومما يؤكد حقيقة هذا اللقاء الرسالة التي أوردها لنا الباحث دافيد روبنسون، والموجهة من الحاج عمر إلى والي السنغال دوكرامون (De- Gramont)<sup>114</sup> بتاريخ 1847م، جاء فيها: ((لي معكم روابط محبة وثقة، وسأعمل على صيانتها على الدوام، إني مهتم بشؤونكم، وستعلمون إن شاء الله عندما سأعود إلى السنغال، أنني رجل يمكن الاطمئنان إليه)).<sup>115</sup>

ولكن يبقى السؤال المطروح هنا: هل ستبقى هذه العلاقات على ما هي عليه؟ أم أنها ستشهد فتوراً في المراحل المقبلة؟

الغالب على الظن، أنّ موقف الحاج عمر المداري للفرنسيين كان مرحلياً (تكتيكياً) في هذه المرحلة، ورغبة منه في الحصول على مساعدتهم، أو حتى على حيادهم أو هما معاً في الفترة السابقة لبناء أسس دولته على الأقل. ولأنه في واقع الحال، كان في هذه المرحلة مشغولاً بحروبه على الجبهة الوثنية، ونشر الإسلام. ولكن هذا الأمر سيتغير بمقتضى مجموعة من الاعتبارات، التي أصبحت تشكل تناقضاً أساسياً، لا

<sup>113</sup> - Carrère(F) et Holl(P), 1855, De la Sénégal française, Paris : Librairie de Firmin ,P. 195. Léon, Faidherbe, Notices sur la colonies du Sénégal, édit. Artus Batrand, 1er édit, Paris 1859, p. 159.

<sup>114</sup> - دوكرامون : شغل منصب والي السنغال خلال عامي 1847 - 1848م.

<sup>115</sup> - Robinson (D), 1988, La guerre sainte d'Al-Hajj Umar: le Soudan occidental au milieu du XIXe siècle, par Henry Tourneux et Jean-Claude Vuillemin, Paris : Karthala, p. 121.

يمكن استيعابه إلا بتعميق الصراع وتجديده لإفراز حل يتماشى ووضعية كل طرف.<sup>116</sup> فالحاج عمر، لم يكن يقبل بوجود الفرنسيين على أرض السنغال وقد توعد أكثر من مرة بإجلائهم عن البلاد، وكان يؤمن بأن هذا الغازي كافر لا بد من مقاومته. أما من جانب الإدارة الاستعمارية، فهي الأخرى لم تكن ترغب في وجود دولة إسلامية تعوق مشاريعها الاستعمارية. ولهذه الغاية عملت على تطويق وعزل الحركة العمرية الجهادية عن طريق فرض حظر على مبيعات الأسلحة، وتشديد الرقابة للحيلولة دون وصول الإمدادات البشرية التي ما فتئ الحاج عمر يطلبها من بلاد فوتا تور وأعالي النهر، فعملت الإدارة على شن حملة إعلامية ضد الحاج عمر وضد ما أسمته (بالتعصب الديني)، وقد جندت لهذه الغاية بعض الفقهاء لنقض أطروحة الحاج عمر، أمثال الشيخ أبو المغداد.<sup>117</sup>

ونظراً لتعارض مصلحة الطرفين وعدم استعداد أي منهما للتنازل أو التفریط في السيطرة على بلدان أعالي النهر، فقد صار الاصطدام بينهما مسألة حتمية، وهو الاصطدام الذي سيؤدي إلى رجحان كفة الفرنسيين ميدانياً، وسقوط الدولة العمرية، ولكن هذا السقوط لا يعني انتهاء المقاومة، بل بقيت مستمرة حتى عام 1895م.

### – الاصطدام العسكري بين الدولة التيجانية والقوى الفرنسية:

يمكن تقسيم المواجهات التي جرت بين الطرفين والتي أجبر على إثرها الشيخ الفوتي إلى الهجرة شرقاً إلى ثلاثة أقسام هي: مواجهات ما قبل 1857 – مواجهات 1857 – مواجهات ما بعد 1857.

### أولاً – مواجهات ما قبل 1857م:<sup>118</sup>

قبل الحديث عن المعارك التي خاضها الحاج عمر ضد الفرنسيين نجد أنفسنا أمام سؤال يلح علينا وهو: كيف كون الحاج عمر جيشه وهو دائم التنقل من مكان لآخر؟

<sup>116</sup> – إن توتر العلاقات بين الطرفين بدأ قبل انتقال الحاج عمر الفوتي إلى بلاد كارطا، عندما أرسل هذا الأخير في بداية عام 1853 مبعوثه إلى باكلي ليطالب من والي سان لويس " بروتو " Protet ، ببيع الأسلحة للمسلمين . وأمام الرفض الفرنسي هدد مبعوث الحاج عمر بروتو بتدمير التجارة الفرنسية في أعالي النهر لعلمه بموقف شيخه الحقيقي الذي يقضي بعدم مسالمة الذميين، إلا إذا خضعوا وامتثلوا لتعاليم الكتاب والسنة ، و من أداء الجزية . وتماشياً مع هذا الخطر الذي استشعرته في حركة الحاج عمر ، فقد عمدت وزارة البحرية الفرنسية إلى إقالة بروتو، وعوضته بفيديرب كوال على السنغال. راجع: الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي ، م.س، ج 3 ، ص. 112 .

<sup>117</sup> – أبو المغداد : هو مترجم الإدارة الفرنسية في سان لويس منذ عام 1855، كان قاضياً، وبقي من أهم أتباع فرنسا إلى حين وفاته في 24 أكتوبر 1880.

<sup>118</sup> – نفذت هذه الهجمات في غياب الحاج عمر الذي كان يوجد في كارطا .

لقد استطاع الحاج عمر أثناء إقامته في سكوتو، ومن خلال المعارك التي خاضها مع الخليفة محمد بلو أن يكتسب الكثير من الأعوان المخلصين، كما أن الأسلاب التي حصل عليها من الحروب كانت تضم الرقيق الذين حررهم وضمهم إلى جانبه.

كان الحاج عمر يقسم قواته إلى ثلاث مجموعات: الطلاب الذين يناصرونه في نشر الطريقة، ثم الصوفيون من الرقيق وغيرهم من المسلمين الأكثر حماساً للجهاد، و أخيراً جماعات (التوبورو)؛ وهم الذين يتم تجنيدهم بالقوة، وكان الشيخ يكتسب أعواناً جدد في كل المناطق التي مر بها أو قام بغزوها.<sup>119</sup>

نفذ هذه الهجمات جنود من جيش الجهاد على سينوديبو (Sénudébu) وباكل (Bakel) في شهر فبراير 1855م، لعرقلة التجارة الفرنسية، مستغلين في ذلك ظرفية الفصل الجاف الذي تقل فيه كمية ماء نهر السنغال الضرورية لتنقل السفن الفرنسية الحاملة للجنود والمؤن والعتاد، لدعم مواقعها المحصنة، وقد تمكن أفراد هذا الهجوم من اعتقال جيرادو (Girardo) حاكم مركز سينوديبو.<sup>120</sup>

ردّ الفرنسيون على هذا الهجوم في شهر مارس من نفس السنة، عندما انطلقت حامية من مدينة باكل بمنسادة عناصر من الموريتانيين لمطاردة المجاهدين في ضواحي باكل و سينوديبو، واستعملت المدافع لضرب القرى التي من المحتمل أنهم لجأوا إليها. غير أن رد كتيبة الشيخ الحاج عمر جاء سريعاً بعد تمكن أفرادها من إغراق سفينة بمياه نهر السنغال وأسر بعض ركابها، كما أنه في 26 أبريل من عام 1855م، شنّ أنصار الحاج عمر انطلاقا من بلدة بولييان هجوماً، تمكنوا من خلاله من الاستيلاء على مؤن وقطعان ماشية سكان سانت لويس، الذين أتو في مهمة إلى سينوديبو.

أمام تزايد فعالية العمليات الجهادية ضد المراكز التجارية الفرنسية، عمد الوالي فيديرب على سانت لويس إلى اتخاذ إجراءات فعّالين، أولهما إبرام اتفاقية مع كبار مدينة باكل ونواحيها، وإعلان هذه المدينة محمية فرنسية، وكل اعتداء عليها يعتبر اعتداء على فرنسا.<sup>121</sup> وقد تمكن فيديرب من الحضور شخصياً إلى عين المكان في شهر يوليو

<sup>119</sup> - Barry, ( B), La Sénégambie du XVe au XIXe siècle, op. cit, p. 253 .

<sup>120</sup> - أحمد الأزمي، 2009، دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية خلال القرن 19م، فاس، دار ما بعد الحداثة، ص. 144.

<sup>121</sup> - Ly-Tall, (M), Un Islam militant en Afrique de l'Ouest au XIXe op. cit, p. 284.

1855م، بعد أن عاد الفصل المطير وامتلاً نهر السنغال بالمياه؛ التي مكنت السفن من التقدم في اتجاه أعالي النهر.

أما الإجراء الثاني، فتحدد في المفاوضات التي أجراها مع جوكا صامبالا Joka sambala رجل مدينة (Médine) القوي من أجل إقناعه أو حمله على الترخيص للفرنسيين ببناء حصن في هذه المدينة الواقعة في موقع متقدم يعتبر مدخلا لأقاليم السنغال الأعلى. والنجاح في الحصول على هذا المكسب سيشكل نتيجة مشجعة في سلسلة من المحاولات الرامية إلى إضعاف خصمهم الحاج عمر الفوتي، وإحداث اختراقات في صفوف الحلفاء بالمنطقة. وقد انتزع فيديرب من جوكا صامبالا بالفعل هذه الموافقة؛ وشرع الفرنسيون استناداً على ذلك في بناء تحصيناتهم بمدينة (Médine)، بعد أن أصبحوا سادة عليها ابتداءً من شهر شتنبر 1855م.<sup>122</sup>

من جهة أخرى، عرف الوالي فيديرب كيف يستغل تذمر أولئك الذين فقدوا امتيازاتهم، ممن أطاح بهم الحاج عمر في السنغال الأعلى، وخصوصاً إقليم الخاسو؛ عندما عرض عليهم توقيع معاهدة تحالف ضد عدوهم المشترك، وهي المعاهدة التي أبرمت بين الطرفين في شهر أكتوبر من نفس السنة.

وعندما نجح فيديرب في هذه المحاولة، لم يتردد في عرض تحالفاته على جهات أخرى بالإغراء وتقديم الهدايا، وبذل الوعود بترقية من يقف إلى جانب الفرنسيين. وقد نجح في هذه السياسة إلى حد كبير، إذ تمكن بالتدريج من كسب الأنصار والحلفاء إلى صفه، في كل بلدان أعالي نهر السنغال باستثناء إقليم بوندو، الذي استعمل فيديرب القوة ضده، وفرض بوباكر سادا حاكماً عليه، يحكم رعاياه بدعم من فرنسا.<sup>123</sup>

ورغم هذا التقدم الذي حصل عليه الفرنسيون في مقدمة أعالي النهر سياسياً وعسكرياً، لم يتخل رجال الحاج عمر عن مناوشة أعدائهم وتضييق الخناق عليهم، مهما كلفهم ذلك من ثمن، ولم يفقدوا الأمل في إقناع من تخلى عنهم وتحالف مع المسيحيين بالرجوع إلى غيهم. وقد وجدوا في رجال بوندو وجديماخا خير من صمد معهم في محنتهم، ولذلك مان رد فعل قوات سانت لويس صارما وقاسيا ضد جديماخا على

<sup>122</sup> - الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي، م.س، ج 3، ص. 115.

<sup>123</sup> - Ly-Tall, Madina, Un Islam militant en Afrique de l'Ouest au XIXe siècle, op. cit, p. 289.

الخصوص، بعد أن اطلقوا يد الموريتانيين يعيثون فيها فسادا بين القتل والسلب والنهب خلال شهر دجنبر 1855م.<sup>124</sup> وعندما لاحظ فيديرب أن سياسة الحديد والنار أعطت ثمارها انتقل إلى مستوى أعلى من الجراءة، فأصدر أوامره إلى جنوده بتدمير كل القرى التي تشتمل على تحصينات عمرية، وكانت قرية ديجي (Dégé) وتحصيناتها العمرية، هي أول هدف شمله الهدم، ورافق عمليات التدمير هذه حملات عسكرية شنت ضد القرى التي رفضت الاعتراف بالزعماء الذين ينصبهم الفرنسيون.

وردا على هذه الاستفزازات والاعتداءات، قامت عناصر من جيش الجهاد بالهجوم على المراكز التجارية الفرنسية في سينوديبو وباكل. وعندما تحركت القوات الفرنسية للانتقام، هزمت في معركة مارسا يوم 30 يناير 1856م. غير أن رد الفرنسيين على هذه الهزيمة جاء عنيفا باعتبار الخسائر الجسيمة التي الحقها بالعدو في الأرواح ورؤوس المشية، وتدمير المنازل. وقد ساعدهم في هذا الانتصار بعض العناصر الموريتانية، وانضمام عدد من السكان المحليين إليهم في بوندو، المتضررين من الضربات الفرنسية المتكررة، بعد أن أرسلوا إلى باكل ممثلين عنهم في 18 فبراير، قصد إبرام السلم معهم، وأداء قسم الوفاء.<sup>125</sup>

ولعل أخبار هذه الانتكاسات وعدم إحراز جيش الجهاد لانتصارات بينية ترهب العدو المسيحي، هي التي جعلت الحاج عمر يغادر كارطا ويتجه صوب خاسو، على الضفة الجنوبية لنهر السنغال، حيث توجد مدينة (Médine) التي تتحصن بها قوات سان لويس ليشراف بنفسه على سير العمليات العسكرية ضد الفرنسيين قبل فوات الأوان. إذاً كانت هذه المرحلة تمثل بدايات الصراع العمري الفرنسي، وما يلاحظ على إستراتيجية الحاج عمر فيها أنه اكتفى بإثارة سكان منطقة النهر ضد الفرنسيين، في إطار ما اصطلح على تسميته بالمقاومة المسلحة الداخلية "حرب العصابات"، وتشديد الخناق الاقتصادي على سانت لويس، عن طريق منع المتاجرة معهم وضرب المصالح التجارية الفرنسية أينما وجدت.

<sup>124</sup> - أحمد الأزمي، العلاقات المغربية الإفريقية، م.س، ص. 146.

<sup>125</sup> - Ly-Tall, Madina, Un Islam militant en Afrique de l'Ouest au XIXe siècle, op. cit, p. 292.

هذه الإجراءات وإن كانت ظرفية، فقد أثبتت فعاليتها، على إثر الخسائر المادية والبشرية التي تكبدها المستعمر، إلا أنها لم تحول دون وقوع مواجهة عسكرية بين الطرفين، التي جعلت الحاج عمر يغير في إستراتيجيته ضد الفرنسيين في المرحلة المقبلة من الصراع.



دولة الحاج عمر في أقصى اتساعها

### ثانياً – مواجهة أبريل 1857 وتجلياتها:

دارت هذه المواجهة في مدينة (Médine)، والتي كانت تحكم من قبل القائد بول هول<sup>126</sup> (Paul holle)، وكان ذلك أثناء عودة الحاج عمر من كارطا. واستعداداً لهذه المواجهة نزل الحاج عمر بـ كوندا (Kunda) الواقعة إلى الجنوب من مدينة (Médine) في منتصف شهر إبريل، وبها استقرت قيادته العليا وعسكر جيشه، الذي بلغ تعداده قرابة 150 ألف مجاهد حسب بعض المصادر.<sup>127</sup>

وفي 19 أبريل توجه جيش المجاهدين صوب مدينة (Médine) ليلاً، وفي صباح اليوم الموالي كان الحاج عمر وجهاً لوجه مع عدوه المحصن داخل أسواره،

<sup>126</sup> – يعتبر من المولدين الذين قدموا خدمات كبيرة للفرنسيين بالسنغال من عام 1823 – 1862م، تقلد العديد من المناصب، منها: قائداً عسكرياً على باكل عام 1840، وحاكم مدينة Médine من 1855 – 1857، وكان لهذا القائد خبرة بما يجري على ضفتي نهر السنغال.

<sup>127</sup>- David (R) ; La guerre sainte d'Al-Hajj Umar, op. cit , P. 195.

ودارت بين الطرفين معركة ضارية دامت ست ساعات، وتمكن خلالها المجاهدون من فرض الحاج عمر حصاراً على مدينة (Médine) التي كان يدافع عنها بول هول، واقتحام بعض حصون وقلاع المدينة، وكادت المدينة أن تسقط بيد المجاهدين حيث رفعت الراية الإسلامية، غير أنه مع مرور الوقت استطاعت القوات الفرنسية أن تحسم الموقف لصالحها بإحداث مجزرة فظيعة في صفوف المجاهدين، اضطر الحاج عمر إلى الانسحاب مع بقية جنوده على إثرها.<sup>128</sup>

تقدم لنا بعض الدراسات أسباب فشل الحصار، الذي عانى فيه المحاصرون من نفاذ مخزونهم من المؤن و الذخيرة، إلا أن ارتفاع منسوب مياه نهر السنغال خلال شهر يوليو 1857 كان سبباً في نجاة المحاصرون، نتيجة وصول المساعدات إليهم، مما أجبر الحاج عمر على التخلي عن الحصار الذي دام ثلاثة أشهر.<sup>129</sup>

ورغم اعتراف العدو باستبسال المجاهدين، ورغبتهم في الاستشهاد، إلا أن هذه الهزيمة شكلت نكسة حقيقية وهزيمة مرة للحاج عمر، حملته - بدون شك - على تأجيل منازلته عدوه مرة أخرى، بعد أن اقتنع بأنه لا زال دون مستوى رفع التحدي في وجه الفرنسيين. وقد حاول الحاج عمر أن يتقدم لهذه الهزيمة لرفع معنويات رجاله واسترجاع هيئته، مستغلاً في ذلك ما تبقى من شهور في الفصل الجاف الذي يحد من حرية تحرك السفن الفرنسية، فشنت قواته سلسلة من الهجومات ضد المواقع الفرنسية، أحدثت فيها بعض الخسائر فقط دون أن تحقق أي انتصار حاسم، نذكر من هذه الحملات على الخصوص هجوم 11 ماي 1857، ثم هجوم 4 يونيو من نفس العام.

ومرة أخرى يتلقى المجاهدون ضربات موجعة على يد العدو الذي رفع من إيقاع حملاته العسكرية عمودياً وأفقياً، وصار يركز من خلالها على أهم المواقع العمرية المحصنة، فحطم تحصينات كونجورو (Cunjuru) بخاسو قرب مدينة (Médine) يوم 22 يوليو. هذه الانتصارات الفرنسية المتتالية خلال الفصل المطير جعلت الحاج عمر يفضل الانسحاب من خاسو ويأمر رجاله بالتخلي عن حصار مدينة (Médine) في

<sup>128</sup> - أحمد الأزمي، العلاقات المغربية الإفريقية، م.س، ص.150.

<sup>129</sup> - نفس المرجع، ص. 151.

شهر غشت 1857 لتجنب الأسوء.<sup>130</sup> لكن السؤال الذي يفرض نفسه: إلى أين سيتجه الحاج عمر؟ وكيف سيكون رد فعله لمحاولة إنقاذ سمعة الجهاد و استرجاع نفوذه الذي بدأ يتلاشى في فوتا وأعالي نهر السنغال، بعد أن تمكن القوات المعادية من إخضاع بوندو وخاسو لنفوذها، بمساعدة حلفائهم مثل جوكا صامبالا و بوباكر صادا؟

لم يكن للشيخ الفوتي من حل أمام هذا الواقع، إلا التوجه صوب الجنوب أي إقليم بامبوك الذي لازال بعيدا نسبيا عن قبضة الفرنسيين ونفوذهم، لبعده عن مدينة (Médine) المحصنة، ولتشبث سكانه بهويتهم الإسلامية، وتعاونهم مع الحركة الجهادية.

أما احتمال الانسحاب إلى كارطا شمال شرق النهر، فلم يكن واردا بالنسبة إليه، لأنه انسحابه إليها في هذه الظروف يعني إفساد كل شيء، واعطاء انطباع للعدو بأنّ دولة الجهاد تخلت نهائيا عن بلدان أعالي نهر السنغال مرغماً.

اختار الحاج عمر، إذا الانسحاب نحو الجنوب وتوقف في بلدة كونجان التي تعتبر مدنها مقدسة كنيورو، والتي تتوسط المسافة بين دنكراي جنوبا، ومناطق النفوذ الفرنسي شمالا، وباكل وسينوديو. وبها أقام مدة من الزمن، أشرف خلالها على بناء قلعة حصينة (طاطا)، ساهمت باسترجاع بعض من هيئته في المنطقة، وأعطته بعض الآمال بإمكان استدراك ما فات، عندما لاحظ أنّ الأغلبية الساحقة من الرعايا في هذه الجهات لا زالت محافظة على العهد بنصرته، والوقوف إلى جانبه. كما أنّ اختياره للانسحاب نحو كونجان في هذه الظروف الحرجة كان موفقا لما يتيح له من إمكانية المرور إلى إقليم بوندو، عبر نهر الفاليمي (أحد روافد نهر السنغال)، وهو إقليم نعرف مدى إخلاصه لقضية الجهاد، وأهمية الدور الذي لعبه لإنجاح حركة الحاج عمر منذ عبوره للمنطقة بجيوشه، قادمًا من دنكراي في اتجاه كارطا، فضلا عن أنّ مجال إقليم بوندو الشمالي يتاخم بلاد فوتا، التي يرتبط شيخنا معها بروابط أسرية ودينية واجتماعية، يمكن توظيفها لصالح قضيته عند الضرورة.<sup>131</sup>

<sup>130</sup> - Barry ( B ) , La Sénégalie du XVe au XIXe siècle, op. cit ,p. 258 .

<sup>131</sup> Barry ( B ) , La Sénégalie du XVe au XIXe siècle, op. cit ,p. 259 .

خلاصة القول، بعد أن استعرضنا أهم محطات الصراع بين الجانبين خلال عام 1857م، نجد أنه تميز بتفوق الجانب الآخر ((الفرنسي)) على الحركة الجهادية، لكن هذا لا يعني إخماد هذه الحركة، بل استمرت إلى حدود عام 1859م، عرفت خلالها مجموعة من الأحداث والتطورات.

### ثالثاً - مواجهات ما بعد 1857م وتخلي الحاج عمر عن منازلة الفرنسيين مؤقتاً:

لقد شكل هذا الانسحاب والابتعاد عن الفرنسيين في اتجاه الجنوب آخر محاولة في نهاية خمسينات القرن 19م، من قبل الحاج عمر لإنهاض الهمم وشحذها، استعداداً للانتقام من الفرنسيين. حيث تحقق بعض الشيء من هذه الآمال لصالح المجاهدين، عندما تنقلوا من إقليم بامبوك إلى إقليم بوندو، عبر نهر الفاليمي دون كبير عناء، مما يؤشر على تعاطف بلدان هذه الجهات معهم. كما حققوا نصراً بيناً على القوات الفرنسية بعد معركة ضارية في قرية نجوم (Njum) الواقعة جنوب بلدته حلوار وسط فوتا في منتصف شهر فبراير 1858م خلال فصل الجفاف<sup>132</sup>.

وخلف هذا الانتصار آثاراً إيجابية في نفوس المجاهدين، نتيجة ما خلفوه من خسائر بشرية ومالية فادحة في صفوف العدو، كما تمكنوا من الاستيلاء على مدفعين اللذان شكلا مكسباً مادياً و دعماً عسكرياً مؤثراً.

وبعد هذه المرحلة أتجه الحاج عمر إلى فوتاتور، ولكن لم يكن الطريق سهلاً أمامه، وخاصة بعد الترتيبات الفرنسية، و الخطر الداخلي المتمثل بتحالف بعض الزعامات المحلية مع الفرنسيين<sup>133</sup>.

لا شك أن الحاج عمر كان على علم بكل تطورات الإجراءات السياسية والعسكرية والاقتصادية الفرنسية التي تدبر ضده في فوتاتور، في الوقت الذي كان يهيئ فيه السكان لتعبئة شاملة، تستطيع قلب الأوضاع لصالح الجهاد بالمنطقة عن طريق توزيع الغنائم المحصل عليها بعد الهجوم على المراكز التجارية، وإلقاء الخطب الحماسية، لكن في مرحلة ثانية تغير خطاب الحاج عمر إلى سكان فوتاتور، ويبدو أن

<sup>132</sup> - الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي، م.س، ج. 3، ص. 124  
<sup>133</sup> - Ly-Tall,( M), Un Islam militant en Afrique de l'Ouest au XIXe siècle, op. cit ,p. 319.

التوجه الجديد لخطابه أملت ضرورات ميدانية واقعية لم يعد قادراً على مواجهتها بنجاح، فأضطر أمام التفوق الفرنسي إلى تغيير الخطاب بغية نهج توسع سياسي جديد، يمكنه من الخروج من المأزق الذي يوجد فيه، ولذلك نجده هذه المرة يحث الناس على الهجرة إلى كارطا للابتعاد عن الفرنسيين ما دام أنهم غير قادرين على مواجهتهم . فيقول الحاج عمر في هذا الصدد: ((هاجروا، لا تتأخروا، اخرجوا من حيث لا وجود للدين ولا للسنة، هاجروا فإن هذا البلد لم يعد لكم، إنه بلد الأوروبي، ووجودكم معه لن ينجح)).<sup>134</sup>

ولكن يبقى السؤال المطروح هنا: ماذا كان رد فعل سكان فوتاتور على هذا النداء؟

تسمح المعلومات المتوفرة بخصوص هذا الموضوع بالقول، بأن الاستجابة كانت جزئية؛ بسبب ما ترتب عن بناء معسكر فاناي الفرنسي من نجاح في مراقبة تحرك أنصار الحاج عمر ومن يدور في فلكه، مع مرافق ذلك من تشديد في العقوبات من تدمير ونهب وسلب، وزهق أرواح في الأوساط الحضرية والقروية، التي ثبتت أو يشتبه أنها تتعاون مع عدوهم، مما يحمل على الاعتقاد أنه حتى تلك المجموعات التي قبلت الهجرة مع الشيخ عمر، على قتلها، فعلت ذلك إما لتشبهتها القوي بالدين والقيم الإسلامية، وتفانيها عن الإخلاص لقضية الجهاد، لما رأت في قائدها من عزم وإصرار على السعي لتطبيق نموذج الخلافة الإسلامية الصحيح في منطقة إفريقيا الغربية، بعد اسقاط كل طغاته، وإما أنها هاجرت معه قسراً، تحت قوة الحديد والنار، كما تتحدث عن ذلك بعض الوثائق التي لا بد من التعامل مع مضمونها بكل ما يجب من حذر، لما عُرف عن الفرنسيين وغير الفرنسيين من تحامل على هذا الشيخ التجاني، وتعمد الإساءة إليه، وتشويه سمعته أمام الرأي العام.

فكانت عملية الهجرة من فوتاتور إلى كارطا محفوفة بالمخاطر؛ لتعدد المراكز العسكرية الفرنسية من فوتاتور حتى أعالي نهر السنغال، ووعياً من الحاج عمر بأن أعين الفرنسيين لا تنام، فقد انطلقت هجرته من نجوم خلال النصف الثاني من فبراير

<sup>134</sup> - الحاج عمر بن سعيد الفوتي، تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين، 1978، منشور ضمن الأدب السنغالي العربي، لعامر صمب، الجزائر، الشركة العامة للنشر والتوزيع، ص. 60.

1859م، في اتجاه كارطا مستغلاً فصل الجفاف الذي ساعد على كبح جماح القوات الفرنسية. وقد ساعدته بالفعل هذه الإستراتيجية بالمرور على كل أراضي فوتا في اتجاه أعالي النهر بسلام، رغم بعض المواجهات الخفيفة التي وقعت بين الطرفين. إلى أن دخل مدينة نيورو (Niuro) عاصمة كارطا سلمياً يوم 28 يوليو 1859م.<sup>135</sup>

ما يلاحظ على هذه المرحلة بأنه غلب عليها الطابع السلمي، وذلك بموجب مقتضيات المصلحة، وبطبيعة الظرفية الزمانية فالحاج عمر وإن لم يحقق خلال هذه المواجهات ما كان يرجوه من صد العدو، لكنه على الأقل ألقى راحة الفرنسيين بمناوشات جنوده و هجوماتهم على الدور التجارية والعسكرية.

ووعياً من الوالي فيديرب، ومعه وزارة البحرية الفرنسية بقدرته على إمكان تحقيق أهداف بلاده في المنطقة عاجلاً أم آجلاً، فإنه رأى من الحكمة - على ما يبدو - أن يسعى إلى تحقيق السلم مع الحاج عمر في الوقت الحاضر على أن يترك لعامل الزمن مسألة تطويق خصمه و الإجهاز عليه. فتوصل الطرفان خلال شهر غشت 1860م إلى الاتفاق على مشروع معاهدة السلم، الذي يجب عرضه على أنظار قائد جيش الجهاد للموافقة عليه.

#### - المفاوضات من أجل إقرار السلم بين الطرفين، وانهيار الدولة التيجانية:

سبق أن أشرنا في مكان سابق بخصوص هذا الموضوع، إلى أنّ رغبة الوالي الفرنسي فيديرب في السلم مع الحاج عمر، ترجع إلى سنة 1856م؛ لحماية المصالح التجارية الفرنسية بالسنگال، والاطمئنان عليها من أطماع القوة العمرية الزاحفة آنذاك بإصرار في اتجاه كارطا عبر بلدان أعالي نهر السنغال، وهي الرغبة التي أبداها من خلال توصية له بتاريخ 12 يوليوز من نفس السنة، وهو بصدد مغادرة السنغال في عطلة إلى فرنسا إلى نائبه موريل (Morel) بسانت لويس، يطلب منه فيها أن يقترح على الشيخ الفوتي الاعتراف به كملك على كارطا، شريطة حصر عمله في نفس هذه البلاد.<sup>136</sup>

<sup>135</sup> - الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19، م.س، ج. 3، ص. 130.

<sup>136</sup> Saint- Martin (Y), 1967, Empire Toucouleur et la France un demi siècle de relations diplomatiques, (1846- 1893), Dakar, p. 94.

وفي سنة 1859م أحيى فيديرب هذه الرغبة، بعد المواجهات المسلحة بين الطرفين، خلال سنة 1854 و 1858م، وبعد أن كان الحاج عمر قد عاد إلى كارطا سالما من محاولات التطويق والإخضاع التي استهدفته في فوتاتور، خوفا من إمكانية عودة قوية لهذا الشيخ في هذه البلاد الحديثة العهد بالإسلام، تقوض كل أحلام الفرنسيين في المنطقة بعد إعداد العدة لذلك.

وقد جاء تحديد هذا الانفتاح الذي أرسله فيديرب بعد عودته من فرنسا والموجه إلى القبطان كورني (Cornu)، قائد حصن باكل، يحمل نفس أفكار اقتراح 1856م، وقد خاطبه فيه متحدثاً عن الحاج عمر فيقول بهذا الصدد: (( إذا وجدتم ذلك مناسباً وأتيحت لكم الفرصة، بلغوا الحاج عمر أنه إذا قبل أن يكون ملكا على كارطا، يحمي التجارة، ويبقى في السلم معنا، فإنه بإمكاننا أن نعيش معه في السلم)).<sup>137</sup>

في هذا الوقت، كان الحاج عمر منهمكاً في الإعداد لفتح مدينة سيكو، وغير مطمئن كامل الاطمئنان على كارطا من احتمال ثورة أهاليها، وخوفا من كيد الفرنسيين الذين بدر منهم في نفس الظرفية، ما يبرر هذا التخوف بالفعل، عندما أرسلوا قوات تمكنت في 25 أكتوبر 1859م من تدمير طاطا، أكبر قلعة للجيش العمري شرق نهر السنغال جنوب باكل، وعلى التخوم الغربية لكارطا والتي كانت بموقعها هذا مؤهلة لمراقبة مداخل فوتاتور، والسنغال الأعلى وكارطا في آن واحد.<sup>138</sup>

لقد كانت ضربة قاسية بالفعل ضد العمريين، سعى من خلالها الفرنسيون - على ما يبدو - إلى التأثير على الحاج عمر وأنصاره، لحملهم على قبول الرضوخ للسلم. وبما أن الحاج عمر قد غادر كارطا وأخذ طريق الشرق على رأس جيوشه المتوجهة صوب سيكو عند وقوع هذا الهجوم، فمما لا شك فيه، أنه كان يميل إلى السلم مؤقتاً. وقد يكون كلف تيبيرنو موسى خليفته على مدينة كونيكاري أحد أقاليم كارطا الغربية بمهمة التفاوض من أجل السلم مع الفرنسيين، كما يحتمل أن يكون هذا الأخير اتخذ مبادرة

<sup>137</sup> Saint- Martin (Y), Empire Toucouleur..., op.cit, p. 95.

<sup>138</sup> - أحمد الأزمي، العلاقات المغربية الإفريقية، م.س، ص.168.

تحمل مسؤولية التفاوض مع العدو من تلقاء نفسه، لما يمكن أن تقدمه مثل هذه المبادرة من خدمة لحماية ظهر قوات الجهاد التي ذهبت في مهمة عسيرة محفوفة بالمخاطر.<sup>139</sup> وأصل تحفظنا في هذه النقطة، يعود إلى عدم عثورنا مصدرياً على ما يؤد أن الحاج عمر كلف تييرنو موسى بالفعل بمهمة التفاوض مع الفرنسيين، دون إقصاء احتمال أن يكون هذا التكليف قد تم شفويّاً، حتى لا يثبت على قائد عمليات الجهاد أنه يسعى إلى الصلح مع المسيحيين، مما يضعه في موقف متناقض مع طبيعة مهمته. وأياً كان الأمر، فإنّ المفاوضات بين الطرفين قطعت بعض الأشواط، وكان العنصر الفاعل فيها من الجانب العمري هو تييرنو موسى بالصفة التي قدمناها، والذي يبدو أنّ سقوط قلعة باكل أجبره على مفاتحة الفرنسيين في السلم في صيف 1859م؛ أي مع حلول الفصل المطير ثم جدد هذه الرغبة في ربيع 1860م.

وحول هذا الموضوع يتحدث قائد مدينة (Ménide) إلى فيديرب والي سانت لويس قائلاً: ((يخبرنا تييرنو موسى أنه يثق بنا، وأنه يريد السلم، وقد أرسل عدة أشخاص إلى باكل)). ومما يؤكد هذه الرغبة عند العمريين الرسالة الموجهة إلى كورني قائد باكل بتاريخ 23 يونيو 1860م، باسم أعيان كونيا كاري وعلى رأسهم طامبو "أي ملك" طامبو كاديها، والتي تبرز إلى أي حد ذهبوا في مجاملة الفرنسيين إلى حد التزلف لهم؛ تجنباً لفتح جبهة قتال ضد الدولة العمرية تكون سبباً في تبديد كل أحلام الحاج عمر، خصوصاً والفصل الجاف قد انتهى. وهذه بعض مضامينها: ((إنّ هدف هذه الرسالة هو إخباركم أننا الآن بينكم وبين الشيخ الحاج عمر من أجل تسوية الأمور معاً، وإرساء السلم. لدينا تحالفات مع البيض (يقصد القبائل الموريتانية)، ولنحاً إليهم دائماً، ورغم أننا الآن منفصلون جسدياً فإننا مجتمعون قلباً وصدقة، لأنكم أنتم أجدادنا، ولا يجمل بالابن أن ينسى أبه وأمه. والآن نطلب منكم أن تتفقوا معنا ومع الشيخ، وأنه باستطاعتنا أن ننوب في ذلك عن الشيخ عمر لأنه منحنا ذلك، نحن نؤمن بهذا، ونصبو إليه من طرفكم لأنكم تجسدون أبانا وأمناء، وكل فرع ترتبط مصلحته بالأصل الذي خرج منه)).<sup>140</sup>

<sup>139</sup> -Saint- Martin (Y), Empire Toucouleur..., op. cit, p. 90.

<sup>140</sup> - Saint- Martin (Y), Empire Toucouleur..., op. cit, p. 97.

وقد علق فيديرب متهكماً على أخبار هذه الاقتراحات التي بلغه إياها كورني، بأنه في كل السنوات يتم اللجوء إلى مساعي مماثلة تجاهنا في وقت ارتفاع المياه، ولذلك ردَّ على كورني بأنه لا يثق بجدية هذا الانفتاح.<sup>141</sup>

نقل هذا الخبر موقف رئيسه فيديرب إلى الناطق باسم الحاج عمر دون أن يغلق باب التفاوض معه، مما جعل تييرنو موسى يجيب بأنه جاد في التواصل إلى السلم مع مخاطبيه، لما فيه مصلحة للجميع. وإلى هذا، ساعدت ظروف الالتزام بعدم إطلاق النار، وازدهار التجارة بالمنطقة مدة المفاوضات، في زيادة الثقة بين كونيكاري<sup>142</sup> من جهة، وباكل ومدينة من جهة أخرى، مما شجع فيديرب على إعطاء الضوء الأخضر للسير قدما في اتجاه القيام بالإجراءات الضرورية لوضع أسس مشروع معاهدة السلم بين الجانبين، وكله تفاؤل بأنَّ الكلمة الأخيرة ستكون لفرنسا في غرب إفريقيا، كما يوحي بذلك مضمون كلمته التي ألقاها في الحاضرين بسانت لويس بمناسبة توزيع الجوائز في مدرسة الرهائن، يوم 14 يوليوز 1860م، إذ يقول: ((لقد ولى زمن التعصب والأوهام، ولم نعد في سنة 1854م؛ حيث كان بعض أهالي هذه المدينة (أي سانت لويس) نفسها يعتقدون أنَّ المحتال الحاج عمر كان يملك في جيبه مفاتيح سانت لويس، وبإمكانه الإلقاء بالنصاري في البحر)).<sup>143</sup>

وللتأكيد من مدى صدق العمرين (المسلمين) في ترجمة أقوالهم لأفعالهم، انتقل فيديرب بنفسه إلى أعالي نهر السنغال، ليقف في عين المكان على حقيقة نواياهم خلال المحادثات التي سيجريها مع ممثليهم الذين ينتظرونه في مدينة (Médine).

وعندما وصل إلى باكل في نهاية يوليوز 1860م، أطلعه القائد كورني على المراحل التي تمَّ قطعها في المفاوضات مع طامبو، الذي كان قد حضر إلى مركزه يوم 15 من نفس الشهر، وعرض عليه الخطوط العريضة لمسودة الاتفاقية بين الجانبين فاستحسنها، إلا أنه ربط موافقته على محتواها بإضافة تعديلين، يتعلق الأول منهما بتوسيع حرية التجارة الفرنسية إلى ما وراء البلدان التي تخضع لنفوذ المجاهدين. أما الثاني، فيرتبط بضرورة الحصول على موافقة الحاج عمر على بنود هذه الاتفاقية. وقد

<sup>141</sup> - أحمد الأزمي، العلاقات المغربية الإفريقية، م.س، ص.170.

<sup>142</sup> - تعتبر كونيكاري إحدى مدن كارطا الكبرى بعد مدينة نيورو.

<sup>143</sup> - الأزمي، المرجع نفسه، ص. 171.

بعض كورني بملاحظات أساسية فوراً إلى تييرنو موسى، الذي رد عليها بالإيجاب، قائلاً: (( أقبل كل ما تتضمنه رسالتك، يمكن لمبعوثك أن يأتي لأساعده على الالتقاء بالحاج عمر دون أن يصيبه أي مكروه، كل ما ضمنته رسالتك صحيح...، وأنا أقبل شروطك)).<sup>144</sup>

ويبدو أنه بعد هذا الجواب الصريح من الجانب العمري، لم يعد لفيديرب أي شك في حسن نية محاوريه، مما وفر الظروف الملائمة لصياغة مشروع معاهدة حظي برضى الطرفين في 18 غشت 1860م، واشتملت على حوالي سبعة بنود:

1. اعتبار نهر السنغال الأعلى ابتداءً من باكل (Bakel) شمالاً وروافده نهر البافنيك (Bafnig) جنوباً، حداً طبيعياً فاصلاً بينهما، بشكل يتيح لفرنسا السيطرة على كل ما يوجد من أراضي على الضفة اليسرى للنهر.
2. كل ما يوجد على يمين نفس الحدود من أراضي مثل ديومبوخو Diombokho وكارطا، و ما والاها شرقاً يخضع للنفوذ العمري باستثناء إقليم جيديماخا .
3. لا يسمح للحاج عمر ببناء قلاع ولا قرى حربية.
4. الكف عن شن الحملات العسكرية والقيام بأعمال السلب والنهب لكلا الطرفين.
5. قبول الحاج عمر بإرجاع السلع التي أخذها في مدينة (Médine).
6. حرية التجارة بين البلدين، وسنبيع للحاج عمر كل ما يطلبه منا.
7. كل بلد يحتفظ برعاياه وأسراره كما يريد، ولا يجوز إرجاع الرعايا والأسرى الذين يفرون من بلد لأخر.<sup>145</sup>

لا يحتاج الباحث إلى عناء كبير ليستنتج بعد الاطلاع على هذه الاتفاقية، أن بنودها صيغت لخدمة المصالح الفرنسية بالدرجة الأولى، فنلاحظ في البند الأول الذي يعالج مجال النفوذ بين الطرفين، أدخل مناطق السنغال الأعلى الغنية بالثروات الباطنية للنفوذ الفرنسي، وهذا ما يشكل ضربة قوية للحاج عمر اقتصادياً، واستراتيجياً على الخصوص، بما شكلته هذه المكتسبات من حواجز تحول دون اتصال الدولة العمرية في

<sup>144</sup> Ly-Tall, ( M), Un Islam militant en Afrique de l'Ouest au XIXe siècle, op. cit .p. 319.

<sup>145</sup> – Crowder Michael; 1978, A History of West Africa A. D. 1000 to the present, Harlow: Longman Group, P. 92-93.

كارطا، بجذورها في فوتاجالون من حيث كانت الانطلاقة الأولى؛ كما أن البندين الثالث والسابع، كبلأ أيدي الحاج عمر، وحكما عليه بالدخول في مرحلة من القهر والضعف، لا يستطيع معها مقاومة أي تحدٍ في حالة ما إذا التزم كل طرف بتطبيق بنود هذه المعاهدة بالفعل.

لقد رأى فيديرب في التوصل إلى مشروع معاهدة 1860م، نصراً كبيراً للفرنسيين ولسياسته بالخصوص في المنطقة، مما جعله يدافع عنها ضد كل التيارات المعارضة في سانت لويس لهذا الانفتاح، لأنها لم تكن تثق بإمكانية جنوح الحاج عمر إلى السلم، من جهة، ولأن مشروع هذه المعاهدة نفسه، في اعتقادها لا قيمة له مادام قائد الجهاد لم يطلع عليه ليعطي رأيه فيه. ومع ذلك، ظل فيديرب متمسكا بهذا الانجاز لما يمكن أن يفتحه من آفاق مشجعة لتحقيق الأطماع الفرنسية في اتجاه السودان النيجيري.<sup>146</sup>

فماذا ترتب إذاً عن هذه الاتفاقية، وما كان مصيرها، وهل أطلع الحاج عمر على بنودها ووافق عليها؟

بخصوص هذا التساؤل الأخير، لا بد لنا من التأكد على أن تخوفات بعض فرنسيي سانت لويس من إمكانية انفتاح الحاج عمر على السلم، كانت في محلها، لأنهم يعرفون موقفه من الفرنسيين، وطموحه في إخضاع كل مناطق إفريقيا الغربية للخلافة الإسلامية، بل تأكد هذا التخوف عندما رد الحاج عمر بالسلب على مشروع هذه المعاهدة بعد الانتصارات التي حققها في سيكو خلال سنة 1861م، وانتشرت إشاعات عودته بقواته نحو الغرب لمواجهة الفرنسيين.

لكن خبر هذه العودة بعد انتصاراته على ملك ماسينا خلال سنة 1862م، لم يتحقق ولم يثنه عن ذلك سوى التطورات المأساوية التي آلت إليه حركته؛ على إثر انهزاماته المتتالية التي تعرض لها جيشه على يد قوات الحلف المكون من التمبكتيين والماسيين خلال سنتي 1863 و 1864م، بل هناك من يرى أنّ أحد أسباب المحن التي أدت إلى وفاة الحاج عمر وزوال دولته، يرجع إلى كون الشيخ الفوتي لم يمنح نفسه

<sup>146</sup> -Saint- Martin (Y), Empire Toucouleur..., op. cit, p.108.

الوقت الكافي بعد الانتصارات التي حققها لاسترجاع أنفاسه، بل وجه كل عنايته لإعداد استئناف الجهاد ضد الفرنسيين بشكل مباشر وعلى الفور.<sup>147</sup>

وهكذا، عندما حلَّ ماج يوم 28 فبراير من عام 1864م بسيكو مبعوثاً من قبل الوالي فيديرب، إلى قائد الجهاد من أجل التصديق على المعاهدة وسط التخوفات الفرنسية من سوء نية العمريين، كان الحاج عمر يعيش أيامه الأخيرة، لتحل بذلك بداية نهاية الإمبراطورية العمرية.

وبما أنَّ أحمدو السلطان الجديد على مدينة سيكو، لم يتوصل بخبر وفاة والده إلا في شتنبر 1856م. فإنه هو الذي سيواصل مع ماج المحادثات المرتبطة بإبرام معاهدة للسلم، والتجارة بين الطرفين، وهو ما تمَّ بالفعل سنة 1866م، لتبرم بعدها سلسلة من المعاهدات بين الجانبين، لم يجن أحمدو ملك سيكو من ورائها أي نفع؛ ذلك أنه كنتيجة حتمية ومنطقية، فقد ترتب على اختفاء الحاج عمر زوال أكبر عقبة في وجه التقدم الفرنسي، سياسياً واقتصادياً بالمنطقة، لأنَّ الابن لم يكن في مستوى الأب، ولكثرة الورثة الطامعين بالحكم، وبالنظر إلى شعوب المنطقة، بامبارا، وفولانيين وثنيين ومسلمين تنفسوا الصعداء بعد هذا التحول، خصوصاً أصحاب الامتيازات، لما سهل مهمة الفرنسيين، وأفسح المجال أمام الجميع للتعاون معهم لكثرة الخدمات والامتيازات التي كانوا يعرضونها على حلفائهم.

ولذلك أمكنهم بسط نفوذهم على كل إفريقيا الغربية مع نهاية القرن 19م. أما سلسلة المعاهدات التي أبرمها معه مثل معاهدة سيكو سنة 1866م، ومعاهدة نانكو سنة 1880م، ومعاهدة كوري 1887م، فلم يكن الهدف منها سوى ربح الوقت، واستغلال بعض مقتضيات بنودها التي تسمح لهم - على الخصوص - بحرية التجارة والمرور، وتنقل البعثات وسفارات التفاوض، وهي عوامل مكنتهم من الاطلاع على الأوضاع الحقيقية للبلاد، وإبرام التحالفات والمعاهدات السرية مع أبرز حكامها، وشراء مساحات شاسعة من الأراضي من أعيانها، ومد خطوط التلغراف، والسكك الحديدية عليها.

ومع أنَّ الشيخ أحمدو سلطان سيكو والخليفة الجديد للتجانية بإفريقيا الغربية، بعد رحيل أبيه الحاج عمر، كان واعياً تماماً بالخطر الذي يحرق به نتيجة هذه

<sup>147</sup> - أحمد الأزمي، العلاقات المغربية الإفريقية، م.س، ص. 174.

المعاهدات، وكثرة البعثات الفرنسية التي تزوره في مقر حُكمه؛ فإنه كان عاجزاً عن إبداء أية مقاومة، لعلمه بتفوق الفرنسيين عليه في كل شيء، ولتطلعه إلى الحصول منهم على كل ما يلزمه من الأسلحة والذخيرة؛ لإخماد الثورات في كل أطراف الإمبراطورية، مثل كارطا، وماسينا، وسيكو نفسها، لإحباط الانشقاقات والانقلابات ضده من قبل أخوته، وابن عمه تجاني، لكن بعيداً عن أن يحقق الفرنسيون أحلامه في توطيد نفوذ دولته، فقد ساهموا على العكس من ذلك في تفويضها، بتشجيع كل أسباب الفرقة بين كل مكونات الأسرة الحاكمة، وحث كل الأقاليم على الثورة ضد التجانيين.

ومن أهم مظاهر حُسن نية السلطان الفوتي أحمدو تجاه الفرنسيين، علاوة على إبرام معاهدات سلم وتجارة معهم، تفضيلهم على الإنكليز الذين اتصلوا به أكثر من مرة لقطع الطريق على حكام سانت لويس، ومعاملته أفراد البعثات الفرنسية معاملة حسنة، بشهادة تقارير الرحالين والسفراء أنفسهم، والتزامه للسلام، واحتفاظه ببرودة الدم تجاههم في أخرج الظروف، بتصديقه على المعاهدات دون أن تصدق فرنسا ولو على واحدة.<sup>148</sup>

ولا يمكن تفسير هذا الواقع، إلا بكون سلسلة المفاوضات والمعاهدات بين الطرفين كانت مغشوشة من الأساس (عبارة عن مسرحية)، باعتبار أن الفرنسيين كانوا يهدفون من ورائها إلى ربح الوقت فقط، في انتظار إضعاف وتفجير الدولة العمرية من الداخل، بسبب الخطر الذي كان يشكله بقاء أحمدو ودولته الإسلامية على مستقبل السنغال، التي كان يتجاوب سكانها مع الدعوة إلى محاربة المسيحيين. وهو ما حدث على يد القائد العسكري الكولونيل أرشينار الذي زحف بجحافلته على سيكو واحتلها سنة 1890م، خارقاً بذلك بنود كل المعاهدات، بعد أن فر منها مدني (Médine) ابن أحمدو، الذي كان يحكم هناك باسم أبيه، لتؤول كارطا وعاصمتها نيورو إلى نفس المصير سنة 1891م على يد نفس القائد، مما أجبر أحمدو الذي كان يقيم بها على الانسحاب إلى بانديكارا، التي طرد منها سنة 1893م بقوة الحديد والنار على يد أرشينار، الذي نصب عجيبو أحد أبناء الحاج عمر المتحالف مع الفرنسيين حاكماً على هذا الإقليم. وبعد هذه الهزيمة، التي أجهزت على البقية الباقية من القوات العمرية المتشبثة بالوحدة

<sup>148</sup> - Saint - Martin (Y), l'Empire Toucouleur..., op. cit, p. 251.

والاستقلال، وتتحدث المصادر عن فرار السلطان أحمدو شرقاً في اتجاه بلاد الهوسا، التي لجأ إليها لدى حُكام مملكة سكوتو الإسلامية (القادرية الطريقة) إلى أن مات سنة 1898م، ليختار أنصاره بعد وفاته المنفى في الحجاز.<sup>149</sup>

خلاصة القول، إنَّ الدولة التيجانية - العمرية، شكلت حلقة من حلقات الإصلاح والجهاد، التي برزت كظاهرة متميزة منذ نهاية القرن 17م في منطقة السنغال، وتنامت خلال القرنين 18 و19م. وقد جاءت كرد فعل على التدخل الأوروبي من خلال التجارة الأطلسية، وما رافق ذلك من انعكاسات سلبية على المنطقة ككل. هكذا ومع انتهاء القرن 19م، تمكنت فرنسا من إخضاع كل إفريقيا الغربية لنفوذها، بعد إسقاط الدولة العمرية التي شكلت وفاة شيخها الحاج عمر أول مسمار دقَّ في نعشها، محققة هناك تقدماً على إنكلترا، التي كانت تصول وتجول في جهات أخرى من إفريقيا، على غرار دول أوروبية أخرى تطبيقاً لمقررات مؤتمر برلين، التي أطلقت أيديها بشكل قانوني منذ فبراير 1885م. لقد سقطت الدولة العمرية التيجانية سياسياً بالفعل، لكنها لم تسقط روحياً ودينياً، بفضل الجهود التي بذلها رجالها سياسياً وفكرياً.

### أحمدو تال بن الحاج عمر وتجدد المقاومة:

#### – وضعية الدولة التيجانية بعد وفاة الحاج عمر:

بوفاة الحاج عمر أسدل الستار على مرحلة مليئة بالبذل والعطاء والتضحية، في سبيل إعلاء كلمة الله، وتطهير منطقة السنغال من بقايا الوثنية، والأطماع الاستعمارية الفرنسية.

ومن المؤسف جداً أن تكون نهايته على يد إخوته في الدين من الماسنيين والكننتيين، وبسببهم دون الذهاب من طرفنا، إلى تحميل المسؤولية لهذا الطرف أو ذاك في ما آلت إليه الأمور من تفتت الدولة التيجانية بعد وفاة الحاج عمر الفتوي، وسقوط المنطقة بعد ذلك فريسة بأيدي القوى الاستعمارية الفرنسية. إذ في الوقت الذي يُقدم فيه العمريون كل التبريرات الشرعية لإعلان الحرب على ماسينا، نجد الماسنيين ومعهم الكنتيين غير مقتنعين بتلك التبريرات؛ مؤيدين كلامهم بدورهم بحجج مضادة من الكتاب

<sup>149</sup> - أحمد الأزمي، العلاقات المغربية الإفريقية، م.س، ص. 178.

والسنة، ومعتبرين في الوقت نفسه الثورة ضد الحاج عمر جهاداً. وبعد استشهاد الحاج عمر ، عاد التيجاني ومعه إمدادات النجدة بعد حوالي 24 ساعة فقط من مقتل عمه بمنطقة دينجراي، ساعد الخلاف بين صفوف المتحالفين ضد الحاج عمر على إحداث مجزرة فيهم، والانتقام للحاج عمر.<sup>150</sup>

بعد استشهاد الحاج عمر تولى حُكم الدولة التيجانية ابنه أحمدو تال، والذي حمل لقب خليفة الطريقة التيجانية في إفريقيا الغربية. وكان عليه أن يواصل ما بدأه والده، في جهاده ضد الفرنسيين وحلفائهم الوثنيين، وحمل أيضاً لقب (أمير المؤمنين)، وكان يحظى بدوره باحترام وتقدير كبيرين من قبل قبائل التكرور.

واجهت مقاومته للاستعمار الفرنسي عراقل وصعوبات متعددة، وتأزمت أيضاً أوضاع دولته التيجانية أكثر من قبل؛ إذ ظهر التنافس والصراع على أشده بين أخوته على الحُكم، مما أدى إلى تمزيق جسد وحدة الدولة التيجانية، ولا نستبعد في الوقت نفسه، أن تكون القوى الفرنسية لها يد في ذلك التنافس الذي سيصب في نهاية المطاف في مصلحتها. فانقسمت الدولة التيجانية إلى أربعة أقسام على النحو التالي:

1. **المقاطعة الأولى:** تضم مناطق شاسعة من الضفة الشمالية لنهر النيجر، وأجزاء من مملكة البمبارا، والأراضي الواقعة بين نهري النيجر وباني، وعاصمتها سغو. وتخضع هذه المنطقة لسلطة أحمدو تال، الوريث الشرعي للدولة التيجانية.
2. **المقاطعة الثانية:** وتضم منطقة كونيا كاري، وتخضع لحُكم أخيه سيرو.
3. **المقاطعة الثالثة:** تمتد من نهر باخوي ونهر باؤول إلى نهر النيجر، والأراضي الواقعة شمالي فوتاجالون، تحت سلطة مونتاجا.
4. **المقاطعة الرابعة والأخيرة:** تضم دينغراي في أعالي نهر النيجر، وخضعت لنفوذ أجييو.<sup>151</sup>

وللتذكير، إن الحاج عمر وبما كان يتمتع به من دهاء وحكمة سياسية قل نظيرهما، كان يشعر بإمكانية انقلاب أبنائه على أخيهما أحمدو، وكان يدرك خطورة ذلك على وضع ومستقبل دولته الفتية، والتي تتربص بها الإدارة الفرنسية من كل الجوانب،

<sup>150</sup> Delafosse M, Haut Sénégal – Niger, 1972, Paris, p. 297.

<sup>151</sup> شيخ لعرج، موقف الطريقة التيجانية من قضايا الاستعمار الكبرى في شمال وغرب إفريقيا خلال القرنين 19 و20، اطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، السنة الجامعية (2016-2017)، ص. 232.

ولذلك وقبل أن توافيه المنية عين ابنه أحمدو نائباً عنه في سيغو، وطلب ولاء أخوته له. فحاول أحمدو جاهداً لملمة الأمور وإعادتها إلى نصابها، قصد استرجاع بعض من هيبة ونفوذ التيجانية التي بدأ يفقدها. ولكن، مع تعنت أخوته وطمعهم بالنفوذ، إضافة إلى فتح جبهة أخرى ضده متمثلة بقيام سلسلة من حركات التمرد في بعض الجهات، في أواخر سبعينيات القرن 19، جعلت مهمة أحمدو في مقاومة الاستعمار الفرنسي أكثر صعوبة وأكثر تعقيداً، لا بل جعل الدولة التيجانية لقمة سائغة أمام الأطماع الفرنسية المتنامية، فلم ينتهي القرن 19 حتى أخضعت السلطات الفرنسية متمثلة بالوالي (غاليني) كل المناطق السنغالية لنفوذها.

وفي النهاية، نود لفت الانتباه إلى قضية أساسية وهي، أن الانهيار الذي أصاب الدولة التيجانية، كان سقوطاً عسكرياً وسياسياً، وليس فكرياً وروحياً، مما يدفعنا إلى التأكيد أن التيجانية وتعاليمها ازدادت انتشاراً ونفوذاً بعد وفاة شيخها الحاج عمر الفوتي، واستمرت قائمة الوجود إلى يومنا هذا.

## خاتمة

في ختام هذا البحث، نجد أنّ هذه الدراسة قد توصلت إلى عدد من النتائج والملاحظات الهامة نجملها في النقاط التالية:

■ تنسب الطريقة التيجانية إلى الإمام أحمد التيجاني، أبو العباس، المولود عام 1737، في عين ماضي بالجزائر، والمتوفى في مدينة فاس عام 1815، ووفدت هذه الطريقة إلى السنغال من بلدان المغرب العربي وموريتانيا، وكان الحاج عمر الفوتي صاحب الفضل الأكبر في انتشار التيجانية بمنطقة السنغال، بشكل خاص، وإفريقيا الغربية بشكل عام، وكان للرحلات التي قام بها داخل السنغال وخارجها، دورا كبيرا في تكوين فكره الجهادي ضد الاستعمار الفرنسي.

■ لم تكن التيجانية دروشة وانعزال، وخمول وسلبية ومرقعات وشطح كما يتصورها البعض، بل أثبتت عكس هذه التصورات القديحة؛ فمارست أدواراً سياسية وعسكرية جعلها تدخل التاريخ من أوسع أبوابه، وخاصة في مجال مقاومة الهيمنة الاستعمارية الشرسة خلال القرن 19.

■ ساهمت عوامل عديدة داخلية منها وخارجية، في تهيئة الظروف المناسبة لقيام الطريقة التيجانية، وتجذرها في منطقة إفريقيا الغربية.

■ كان الوجود الأوروبي على الشواطئ الإفريقية قبل القرن 19م، مقتصرأ على الجانب الاقتصادي، والثقافي (محاولة نشر المسيحية). وكان همه الأكبر هو تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح، وكما لم يصطب هذا الحضور - بطبيعة الحال - أي وجود عسكري مكثف على الأرض الغرب إفريقية.

■ يتضح أيضاً، أنّ التوسع الاستعماري الفرنسي في السنغال، لم يكن وليد ظرفية القرن 19م؛ ولتحقيق هذا الهدف استعملت فرنسا كل الوسائل المتاحة شرعية كانت أو غير شرعية. وبدأ مسلسل تثبيت السيادة الفرنسية

على الممالك السنغالية، مع تعيين فيديرب عام 1854م واليا على مستعمرة السنغال؛ والذي استطاع تحقيق حلم فرنسا في تحويل الحضور الفرنسي في المنطقة من حضور تجاري إلى احتلال عسكري وسياسي.

■ لعبت الطريقة التيجانية متمثلة بزعيما الروحي والعسكري، الحاج عمر الفوتي، دورا مهما في توطيد قواعد العقيدة الإسلامية بمنطقة إفريقيا الغربية، بالعمل على تنقيته مما أصابه من شوائب، والقضاء على جيوب الوثنية، والوقوف في وجه المسيحية بتلك الأصقاع، وذلك بعد قيام الحاج عمر برحلات داخل المجال السنغالي، وخارجه، كان من أهمها رحلته إلى المشرق لأداء فريضة الحج، التي استغرقت قرابة عقدين من الزمن، حيث عاد بتجربة روحية كان لها بالغ الأثر في فكره الجهادي.

■ شكّل الإسلام متمثل بالطريقة التيجانية، عقبة حقيقية في وجه الأطماع الفرنسية بالمنطقة، وخطراً كبيراً على مستقبل وجودها بمنطقة غرب إفريقيا ككل. ومما يزكي هذا التخوف من قبل الفرنسيين، الانتصارات المتلاحقة، وسقوط الأقاليم، الواحد بعد الآخر، تحت نفوذ الدولة التيجانية الفتية، الأمر الذي دفع بالسلطات الفرنسية إلى استعمال كل ما في وسعها لإحتواء الحاج عمر ودولته، بالوسائل السلمية من الوعد والوعيد أولاً، ثم باستعمال القوة، وبعد وفاة هذا الأخير، تمكنت فرنسا من الاجهاز على دولة الحاج عمر بنهج سياسة التفرقة بين الأمراء من جهة، واستعمال لغة الحديد والنار لدعم المناهضين لها من جهة ثانية، مما مكنها من فرض استعمارها على السنغال بشكل نهائي مع نهاية القرن 19م.

■ تولى المقاومة من بعده ابنه البكر أحمدو، الذي حاول توحيد البلاد، لكنه لم ينجح، وذلك بسبب تحالف بعض الملوك ضده، وأيضاً بسبب الخلافات الداخلية المتمثلة بالصراع على الحكم.

■ وأخيراً ونحن نخط السطور الأخيرة لهذا العمل، نود التأكيد على أنّ موضوع مقاومة الزاوية التيجانية وأدوارها السياسية في منطقة إفريقيا

الغربية، رغم الجهد الذي بذلناه، لم نتمكن من دراسة كل جوانبه دراسة  
شاملة، ونتمنى أن تتاح لنا هذه الفرصة في دراسة قادمة بحول الله.

## المصادر والمراجع

## المصادر والمراجع العربية

- الأزمي، أحمد ، 2000، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج.1.
- الأزمي، أحمد ، 2009، دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية خلال القرن 19م، فاس، دار ما بعد الحداثة.
- برادة، علي حرازم ، 1988، جوهر المعاني وبلوغ الأمان في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، وبهامشه كتاب رماح حزب الرحيم، لعمر بن سعيد الفتوي الكدوي، بيروت: دار الجيل، ج. 1.
- بروديل، فرناند، 1993، الحضارة المادية والإقتصاد والرأسمالية، ج. 2، ترجمة، مصطفى ماهر، باريس.
- البكري، أبي عبيد، 1965، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك، حققه وترجمه للفرنسية دوسلان، باريس، ميزونوف.
- بن السايح، محمد العربي ، 1973، بغية المستفيد لشرح منية المرید، بيروت: دار الفكر.
- بوعزيز، يحيى، 2001، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16 م إلى مطلع القرن 20 م ، الجزائر: دار هومة.
- سكيرج، أحمد ، 1988، كشف الحجاب عن تلاقى مع الشيخ التيجاني من الأصحاب، بيروت: المكتبة الشعبية.
- الشكري، أحمد، 2001، ((جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال))، مقالة منشورة ضمن الندوة الدولية المنعقدة في داكار 1998، بمناسبة مرور مائتي سنة على ميلاد الشيخ الحاج عمر الفتوي تال، منشورات معهد البحوث والدراسات الإفريقية، الرباط.
- العراقي، إدريس ، اليواقيت العرفانية في التعريف بالشيخ أحمد التيجاني وبطريقته وزاويته الأم التيجانية، مرقون ضمن أعمال ندوة الطريقة التيجانية التي انعقدت بفاس من 23 إلى 29 دجنبر، 1985.

عيسى، عبد الله، ((المحطات التجارية في غرب إفريقيا وتأثيراتها))، مجلة قراءات إفريقية، العدد 44، مايو 2020.

عيسى، عبد الله، 2017، الاستعمار الفرنسي للسنغال، القاهرة: المكتب العربي للمعارف.

الفوتي، الحاج عمر بن سعيد، 1988، رماح حزب الرحيم على نحو حزب الرجيم، على هامش جوهر المعاني، لعللي برادة، بيروت.

الفوتي، الحاج عمر بن سعيد، تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين، 1978، منشور ضمن الأدب السنغالي العربي، لعامر صمب، الجزائر، الشركة العامة للنشر والتوزيع.

كمرا، موسى، 2001، أشهى العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر؛ تحقيق وتقديم خديم محمد سعيد امباكي وأحمد الشكري الرباط: معهد الدراسات الإفريقية.

لعرج، شيخ، موقف الطريقة التيجانية من قضايا الاستعمار الكبرى في شمال وغرب إفريقيا خلال القرنين 19 و20، اطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ

الحديث والمعاصر، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، السنة الجامعية (2016-2017).

ولد الحسن، أحمد، 1989، "حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا"، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الأول، جامعة

نواكشوط.

ولد السعد، محمد المختار، 1993، حرب شريبه أو أزمة القرن 17م في الجنوب الغربي الموريتاني، نواكشوط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي.

ولد المختار، محمد السعد، إمارة الترازو وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703-1860م، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية.

ولد المصطفى، محمد عبدالله، "التدخل الفرنسي في موريتانيا (1854-1905) اكزافي كوبلاني نموذجاً"، رسالة لنيل درجة الماستر في التاريخ، الدار البيضاء،

جامعة الحسن الثاني، بنمسك، (2008-2009م) مرقونة.

## المصادر والمراجع الأجنبية

- Amar Samb, «la vie d'El Hadj Omar, par Cheikh Moussa Kamara», bulletin I.F.A.N., T32, n°23 année 1970 Dakar, Sénégal.
- Awad (M), Un Fondateur de Confrérie religieuse Maghrébine : Sidi Ahmed –Al-Tijani, Revue Maroc Europe , N° 2, 1992.
- Barry(B), La Sénégambie du XVe au XIXe siècle: traite négrière, islam et conquête coloniale, Paris : L'Harmattan, 1988.
- Ca Da Mosto (A .De.). 1895, Relation des voyages à la cote occidentale d'Afrique., Paris, publié par M. Charles Schefer.
- Carrère(F) et Holl(P), 1855, De la Sénégal française, Paris : Librairie de Firmin .
- Crowder Michael; 1978, A History of West Africa A. D. 1000 to the present, Harlow: Longman Group.
- Curtin (Ph.), 1971, " Jihad in West Africa, early phase and inter-relations, in Mauritania and Senegal", Jornal of Africa history, XII, No 1.
- Deschamps (H.), 1976, L'Afrique noire précoloniale, de Madagascar et des Archipels, Presses universitaires de France.
- Desportes (V), 2001, Comprendre la guerre ; préf. du général d'armée Yves Crene . - Paris : Economica.
- Gautier (E. F), 1949, L'Afrique Occidentale Françaises, Paris.
- Godinho, Magalhzes, V, 1969, l'Economie de l'empire portugais aux XV XVI siècle, Paris, MSH.

- Gouilly (A), 1952, l'Islam dans l'Afrique Occidentale Française, Paris.
- Léon, Faidherbe, Notices sur la colonies du Sénégal, édit. Artus Batrand, 1er édit, Paris 1859.
- Madina (L.T),1991, Un islam militant en Afrique de l'Ouest au XIXe siècle : la Tijaniyya de Saïku Umar Futiyyu contre les pouvoirs traditionnels et la puissance colonial.
- Mage, (E).1980, Voyage au Soudan occidental 1863-1866 , Paris: Karthala.
- Marty (P), 1961, L'Islam en Mauritanie et au Sénégal, Paris.
- Mollien (G), 1820, Voyage dans l'intérieur de l'Afrique aux Sources du Sénégal et de la Gambia, fait en 1918.
- Robinson (D), 1988, La guerre sainte d'Al-Hajj Umar: le Soudan occidental au milieu du XIXe siècle, par Henry Tourneux et Jean-Claude Vuillemin, Paris : Karthala.
- Saint- Martin (Y), 1967, Empire Toucouleur et la France un demi siècle de relations diplomatiques, (1846- 1893), Dakar.

## فهرس الموضوعات

إهداء.....	3
مقدمة.....	6
الفصل الأول: التعريف بسيدى أحمد التيجانى مؤسس الزاوىة.....	8
رحلاته ودورها فى صقل معارفه الدينية والعلمية.....	13
إدراك الولاية بأبى سمغون بفضل العناية المحمدية.....	13
الفصل الثانى: قيام التيجانية بمنطقة إفريقيا الغربية وانتشارها.....	17
1. التعريف بالحاج عمر الفتوى مؤسس التيجانى وباعثها فى إفريقيا الغربية.....	17
2. رحلاته إلى الديار الإسلامية ونتائجها.....	19
– رحلاته العلمية داخل السنغال.....	19
– رحلاته خارج بلده السنغال.....	19
3. فوائد الرحلات .....	20
▪ الجانب العلمى.....	21
▪ الجانب الروحى.....	21
▪ الجانب العسكرى.....	21
المبحث الأول: الظروف الممهدة لقيام التيجانية بمنطقة إفريقيا الغربية.....	23
أولاً – الأوضاع الداخلى المتردية.....	23
▪ مملكة كاجاكا.....	24
▪ بلاد البوندو.....	25
▪ مملكة بامبوك.....	26
▪ بلاد الخاسو.....	26
▪ مملكة فوتاجالون.....	27
▪ مملكة سيلا.....	27
▪ مملكة فوتاتور.....	27

المبحث الثاني: الحركات الإصلاحية كردة فعل لتأزم الأوضاع الداخلية في إفريقيا الغربية.....30

30..... حركة الإمام ناصر الدين.....

30..... امتداد الحركة إلى المجال السنغالي.....

33..... خصائص الحركة.....

35..... نتائج الحركة.....

38..... حركة سليمان بال ونتائجها.....

39..... حركة الإمام عبد القادر.....

المبحث الثالث: تزايد الأطماع الأوروبية في منطقة إفريقيا الغربية.....42

42..... 1. الأطماع البرتغالية.....

47..... 2. الأطماع الهولندية.....

49..... 3. الأطماع الإنجليزية.....

49..... 4. الأطماع الفرنسية في السينغامبيا.....

الفصل الثالث: الأدوار السياسية للطريقة التيجانية في إفريقيا الغربية خلال القرن

19م.....52

المبحث الأول: جهاد التيجانية ضد الإمارات الوثنية.....52

أولاً - الحرب ضد مملكة طامبا.....52

53..... - نتائج الحرب بالنسبة للدولة التيجانية.....

ثانياً - إخضاع بلدان السنغال الأعلى دون الاصطدام مع القوات الفرنسية.....54

54..... ▪ ضم بامبوك.....

55..... ▪ ضم كارطا.....

57..... ثالثاً - إخضاع سيكو.....

58..... - استراتيجية الحاج عمر في جهاده ضد الإمارات الوثنية.....

المبحث الثاني: جهاد الحاج عمر ضد الفرنسيين.....59

60..... ▪ مواجهات ما قبل 1857م.....

- 64.....مواجهات أبريل 1857م وتجلياتها.....
- 69.....مواجهات ما بعد 1857 وتخلي الحاج عمر عن منازل الفرنسيين مؤقتا.....
- 77.....أحمدو تال بن الحاج عمر وتجدد مقاومة التيجانية.....
- 79.....وضعية الدولة التيجانية بعد وفاة الحاج عمر الفوتي.....
- 80.....خاتمة.....**
- 83.....المصادر والمراجع.....**
- 84.....المصادر والمراجع العربية.....
- 86.....المصادر والمراجع الأجنبية.....
- 88.....فهرس الموضوعات.....**

## الباحث في سطور



د. عبد الله عيسى من مواليد مدينة حلب 1981، حاصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث من جامعة الحسن الثاني - المغرب (2015) بميزة مشرف جداً، عضو هيئة استشارية / مُحكم/ في المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، المركز القومي للبحوث، رام الله، فلسطين. لديه العديد من الدراسات والأبحاث في الشؤون الإفريقية من أهمها:

- الإسلام وبدايات التدخل الأوروبي في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 15 و 17م، منشورات المكتب العربي للمعارف، القاهرة 2017.
- الاستعمار الفرنسي للسنغال، منشورات المكتب العربي للمعارف، القاهرة 2017.
- مجمل تاريخ السنغال من القرن 11 إلى متم القرن 19، منشورات مركز الكتاب للأبحاث والدراسات، مقديشو (2020).
- بحوث ودراسات في تاريخ مملكة مالي (1230-1430م)، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة ، قيد الطبع.
- الاحتكاك الاقتصادي بين السنغامبيا وأوروبا ما بين القرنين 15-18م، المجلة العلمية للدراسات التاريخية والحضارية، جامعة السيد محمد بن علي السنوسي، كلية التاريخ والحضارة، ليبيا العدد 5، يونيو 2020
- دور الكوارث الطبيعية في سقوط ممالك إفريقيا الغربية، ورقة مقدمة في ندوة: الأوبئة والأمراض في التاريخ.. تجارب ودروس، 10-11 حزيران 2020، والمنظمة من طرف الاتحاد الدولي للمؤرخين العرب وبالتعاون مع جامعة سليمان الدولية - تركيا، وجامعة سيدي محمد بفاس.
- أثر الإسلام على المجتمع الأفريقي، مجلة جامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين، العدد 36، الجزء الأول/ حزيران/ يونيو 2015 .

- الحج في عهد مملكة مالي : دراسة تاريخية، مجلة البحوث التاريخية، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، العدد الثاني، جوان، 2017.
- الدور الاجتماعي للإسلام في فضاء السنغامبيا خلال القرن 17م، دورية كان التاريخية عدد 33 سبتمبر 2016.
- مكانة الإسلام في عهد مملكة سنغاي، مجلة قراءات إفريقية، الرياض، عدد 23، يناير 2015.
- الحركات الإصلاحية الدينية في غرب إفريقيا خلال القرنين 17 و 18م، مجلة البيان، الرياض، عدد 336 يونيو 2015.
- التجارة الأطلسية وتأثيرها على مجتمع السنغال خلال القرنين 17 و 18، مجلة الدراسات الإفريقية وحوض النيل، المركز الديمقراطي العربي، برلين العدد 8 ماي 2020 ، ص 74-82
- الأوبئة والخبرة التاريخية: تعامل الإدارة البريطانية مع مرض الجدري في الهند خلال القرن 19، المركز العربي للبحوث والدراسات، القاهرة.
- مكانة المرأة في مجتمع السودان الغربي ما بين القرنين 11 و 16م، مركز مستقبل الخليج، الإمارات العربية المتحدة.